الفلسفة السيكولوجية للإنسان المعاصر

بحث اجتماعي

الطبعة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: الفلسفة السيكولوجية للإنسان المعاصر

اســـم المـؤلف: د. عبدالبر الصياد – أ. أحلام كرادرة

التصنيف الأدبي: بحث اجتماعي

رقـم الإيـــــداع: 15536 / 2020

الترقيـــم الدولي: 0 - 24 - 6830 - 977 – 978

تصميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الفلسفة السيكولوجية للإنسان المعاصر

بحث اجتماعي

د. عبدالبـر الصيـاد

أ. أحـــلام كـــرادرة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

صدق الله العظيم

إلى سيادة الرئيس عبد الفتاح السيسي رئيس الجمهورية العربية المصرية.

وإلى والدتي ومعلمتي الأولى طيب الله ثراها.

إلى أبنائي بيجاد ومحمد ولوسيندا، قرة عيني

وكلّ الأحباب والأصدقاء وأسرتي الكريمة

وكل طلاب العلم والمهتمين

وأعضاء المركز العالمي للمحاماة والتحكيم الدولي وفض المنازعات

د. عبد البر الصياد

****

إهداء

إلى من اقترن اسماهما باسم رب العالمين

أبي الغالي الذي فارقنا بجسده ولكن روحه مازالت ترفرف في سماء حياتي.

أمي العزيزة أطال الله في عمرها وأمدها بالصحة والعافية

إلى كبيرة المقام جدتي الغالية

إلى رفقاء الكفاح ...جموع الأهل والأصدقاء

إلى جميع معارفي الكرام

إلى جميع الباحثين وطلبة العلم.

إلى من قدّم لنا تسهيلات للتأليف ألف شكر وتقدير

أهديكم هذا العمل المتواضع

أ. أحلام كرادرة

****

المقدمة

الإنسان هو عصب التطور من الناحية العاطفية والعقلية، أساس كل حضارة بشرية، المادة الخام التي تستخرج منها الأشياء القابلة للاستهلاك، قطرات الماء التي تبعث الروح في شجرة الحضارة الجدباء، بعد أن كادت تموت أغصانها من شح المياه، والانبعاث الحقيقي لمفهوم الرقي والازدهار لن يتأتى إلا بالاهتمام بهذا الإنسان ومدى استعداده لمواكبة التحديات.

بناء الإنسان أكبر التحديات لملازمة التقدم، وبناء مشروع نهضوي يتواءم وحقيقة العصرنة والعولمة، ولاشك أن هذا الإنسان تتحكم فيه سيكولوجية معينة، تحاول التأثير عليه لتمارس نوع من أنواع التماسك في مختلف المجالات .

وهذا الكتاب الذي يحمل عنوان "الفلسفة السيكولوجية للإنسان المعاصر" يحاول دراسة وتحليل بعض القضايا التي تخص الإنسان في ظل مواجهة التحديات التي تؤرقه وإجابة على المعطيات واستخلاصاً للمقدمات ومحاولة إعطاء حلول للمواضيع الفلسفية بطريقة نفسية مستخلصة من عمق التأصيلات المعرفية، خصوصاً أنّ الإنسان يكتسب ميكانيزمات عقلية ونفسية تسعى لرسم معالم وخريطة العمليات الحياتية.

هناك إشكالات تفرض نفسها علينا، وتدفعنا لطرح تساؤلات ناتجة عن زخم التنظير الفلسفي الذي كان أول مَن أسسَ لفكرة ماهية الإنسان، وضرورة تواجده في المحافل الثقافية والحضارية والتربوية، لكي يثبت جدارته داخل مقاربة تعالج الإبهامات.

الكتاب يسعى فيه الدكتور عبد البر الصياد والأستاذة أحلام كرادرة، لفهم كينونة الإنسان المعاصر وإدماجها سيكولوجياً من منطلق الذات وصولاً إلى الموضوع، فالرؤية الفلسفية التي حاولا علاجها هي المادة العلمية الوحيدة القادرة على إعطاء بُعد جديد للقضايا النظرية في مجال الإنسانيات، من خلال مجموعة مقالات متنوعة تسعى لإصلاح وتغيير الرؤية الضبابية لبعض المعتقدات والمفاهيم، وفق منهج مضبوط، يتماشى والمعطيات المجتمعية والاستثمار في المسلمات التي كبحت العطاء المعرفي لقرون من أجل تشييدها من جديد ونبذ التراكمات التاريخية التي عطّلت الأذهان.

الأستاذة أحلام كرادرة

****

الجزء الأول

أوهام التطور:

إنّ التطور والتغيير من مرحلة لأخرى ومن درجة إلى أخرى، يتطلب هذا الانتقال القضاء على كل العوائق الفكرية والسلوكية التي تقف بشكل تلقائي أمام هذا التطور، والتطور الذي أعنيه هو تغيير في الذات والصفات، لا بالملحقات المادية المحيطة بالإنسان كالسكن والجنس وغيرها؛ فهذه الأشياء لا تقبل التطور أو التغيير بذاتها؛ لأنها لصيقة بغرائز الإنسان، وطريقة التعبير عنها واحدة، ولكنها تختلف في حدتها ودرجة إشباعها في رغبة متجددة، في ازديادٍ مستمر ولعلَّ العائق الغريزي هو أصعب العوائق التي تعترض الإنسان، إذا ما قرر الولوج في طريق التغيير والتطور فالعلم والمجتمع كي يتطورا، يجب أن يتخلصا من أربعة أصنام...!

الصنم الأول/هو صنم القبيلة

وهو مجمل المعتقدات الزائفة المزروعة في الطبيعة الإنسانية؛ فالإنسان جبل في تفكيره على الاعتماد على الحدس والأماني والنزعة نحو التعميم في الأحكام والأسباب، دون تمحيص منطقي أو عملي، ويؤمن أن معتقدات قبيلته أو عرقه أو جماعته هي الحقيقة!

....

الصنم الثاني/ هو صنم الكهف

وهو العيوب الناتجة من الطبيعة الشخصية لكل فرد على حِدة، ومنها تتولد معتقداته الخاصة (وهو متقوقع في كهف أفكاره)، والتي غالباً ما تكون اعتباطية.

....

الصنم الثالث/ صنم السوق

وهي المعتقدات الزائفة الناتجة عن تواصل البشر مع بعضم البعض، وينتج عنه تبادل كلمات ومصطلحات عامه يتم تبنيها رغم زيفها وعموميتها...!

....

الصنم الرابع/صنم المسرح

وفيه يتم تشبيه الناس بالمتفرجين في عرض مسرحي، وهم يتلقون التعليم على خشبة المسرح، والمقصود هنا هو مجمل المنظومة الفكرية والدوجماتية، التي تم تلقينها للمجتمع خالقة عالماً مسرحياً زائفاً، ومنظومة من الأحكام المسبقة التي تقف عقبة في وجه الحقيقة.

....

الاستدلال:

يعتبر الاستدلال العمود الفقري للقضايا القانونية أو السياسية أو العلمية أو في المعاملات العادية بين الناس؛ فالاستدلال /عباره عن فعل آلية استنتاج منطقي بناء على فرضيات تعتبر صحيحة وتسمى النتيجة بالاصطلاح، وتسمى الاستدلالات الخاطئة بالباطل، وينقسم الاستدلال إلى:

1-الاستدلال الاستقرائي: أو أحياناً المنطق الاستقرائي، وهو الاستدلال الذي ينتقل من الجزئي إلى الكلي، وينقسم إلى استقراءٍ تام واستقراءٍ ناقص.

2-الاستدلال الاستنباطي: وهو أحد أشكال الاستنتاج "تصميم أعلى أسفل" ويمكن قياس الجدل عندما تعتمد صحة البرهان على منطقية الفرضية العامة أو المبدئية، الاستدلال الإنساني وهو مجال دراسة كيفية قيام الشخص بالاستنتاجات.

3-الاستدلال الإحصائي: وهو اعتماد الأرقام والرياضيات في الاستنتاجات، دراسة جميع القضايا تعتمد على صحة الاستدلال، ومدى مراعاة هذه القواعد سواء كان في مرحلة جمع الاستدلالات أو حتى بعد الوصول للنتيجة وإلا اعتبر الاستدلال باطلاً أو فاسداً، فسد وبطل ما ترتب عليه

وإذا كان الأمر كذلك؛ فالضرورة المنطقية تقتضي منا التعرض إلى أساسيات الاستدلال، وهي المعرفات واللا معرفات، والبديهيات والمسلمات.

ترتبط فكرة الاستدلال ارتباطاً لا يقبل التجزئة بأسس الفكر الإنساني، بل وتتكامل معها ولا يمكن تصور الاستدلال بدونها ورغم ارتباط هذه الأسس بعضها البعض، إلا أنه يجب علينا أن نميز بين كليها، ولكن هذا التمييز يواجه صعوبة بالغة للتشابه الكبير بينها وهذه الأسس هي:

1-التفسير

2- الحجج

3-التبرير

أولاً: التفسير: وهو مجموعة من العبارات التي تصف مجموعة من الحقائق، وتوضح أسباب هذه الحقائق وسياقها ونتائجها.

ثانياً: الحجج: تسعى الحجج لبيان أن حالة شيءٍ ما كما هي، أو كما ستكون أو كما ينبغي أن تكون، بينما تحاول التفسيرات بيان سبب أو كيفية كون شيء ما هكذا، وبهذا الفهم يمكن القول بأن الحجج تهدف إلى تقديم المعرفة، بينما تهدف التفسيرات إلى تقديم الفهم.

_أوجه التشابه بين الحجج والتفسيرات:

تتشابه الحجج والتفسيرات بعضها البعض بشكلٍ كبيرٍ في الاستخدام البلاغي، ولهذا السبب هناك قدر كبير من الصعوبة في التفكير النقدي بشأن الادعاءات، وترجع هذه الصعوبة إلى العديد من الأسباب، وعادة لا

يكون الأشخاص واضحين إذا ما كانوا يقدمون حججاً لشيءٍ ما، أم يفسرون وهذه الأسباب هي:

1/ استخدام نفس أنواع الكلمات والعبارات في تقديم التفسيرات والحجج.

2/كثيراً ما يتم استخدام المصطلحات فسر، أو تفسير وما شابه من الحجج.

3/عادة ما تستخدم التفسيرات في الحجج، وتقدم على أنها حجج.

التبرير: هو السبب وراء صحة تمسك شخص ما باعتقاده أي أنه تفسير لصحة الاعتقاد أو تعليل لمعرفة ما، يعتقد به الشخص وبنفس الطريقة التي قد يتم الخلط فيها بين الحجج والتفسيرات، ويحدث هذا كثيراً للغاية بين التفسيرات والتبريرات حيث تأخذ العبارات التي تبرر عملاً ما شكل الحجج، فمثلاً عادة ما تفسر محاولات تبرير السرقة والدوافع وراءها مثل "إطعام أسرة تتضور جوعاً" ومن الأهمية بمكان الوعي بالحالات التي لا يكون فيها التفسير تبريراً، قد يقدم القائم على التشخيص الجنائي تفسيراً لسلوك المشتبه به "مثل فقد الشخص وظيفته أو طرده منها أو ما شابه"، وربما تساعدنا هذه العبارات في فهم سبب ارتكاب الشخص للجريمة، ولكن قد يعتقد مستمع غير واعٍ بأن المتحدث يحاول كسب التعاطف مع الشخص وأفعاله، إلا أنه في الحقيقة لا يستتبع تقديم شخصٍ ما، لتفسير الحصول على التعاطف مع الآراء أو الأفعال محل التفسير وهذه تفرقة مهمة،

حيث تلزمنا القدرة على فهم الأفعال والسلوكيات الفظيعة وتفسيرها في محاولة لإحباط الإقدام عليها.

في الأجزاء السابقة استعرضنا بتلخيصٍ غير مخل الاستدلال وحددنا مفهومه أهميته في الحياة اليومية والعملية والعلمية والقانونية، ولكن الضرورة تقتضي للتطرق إلى الحديث عن الأسس الأولية التي تحكم منهج الاستدلال، وهي المعرفات واللا معرفات والبديهيات والمسلمات.

أولاً: المعرفات أو التعريفات: وهي عبارة عن توضيح معنى اللفظ أو المصطلح أو تحديد مفهومه، ويتم ذلك بذكر الصفات التي توضح هذا المعنى أو تحدد هذا المفهوم؛ فالتعريف أشبه بمعادلة طرفها الأيمن الحد المراد تعريفه أو توضيحه أو شرحه، وهو المعرف وطرفها الأيسر هو العبارات الشارحة لطرفها الأيمن، أي أن المعرف = المعرفات، مثل: تعريف القتل وهو إزهاق روح إنسان حي بغير وجه حق، أي أنّ التعريف لابد وأن يكون من جنس المعرف.

شروط المعرفات:

1-ألّا يحتوي على المعرف "الطرف الأيسر" على لفظ المعرف "الطرف الأيمن" أو أيّ مشتق منه حتى لا يكون التعريف دائرياً أي مفرغاً عقيماً.

2-أن يكون بين طرفي التعريف مساواة تامة، بحيث يمكن أن نستعيض عن أحد الطرفين بالطرف الآخر.

3-أن يكون دقيقاً ومنسقاً بين حدوده وبينها، وبين حدود النسق كله فلا يكون أحد التعريفات نافياً لتعريف آخر في النسق أو متناقضاً معه.

4-أن يكون فضفاضاً، بحيث يصبح أوسع مما تحتاجه؛ فيحتوي المعرف وغيره، أي يجب أن يكون التعريف جامعاً مانعاً، يجمع ما يندرج تحت التعريف ويمنع مالا يندرج تحت المعرف.

5-كما لا يجب أن يكون التعريف ضيقاً أكثر مما ينبغي، أو أقل مما نحتاجه بحيث لا يكفي لتحديد معنى المعرف الأمر الذي يؤدي إلى الغموض وعدم الوضوح.

قصة القانون:

والحقيقة ولا شك أن الإنسان لا يستطيع الوجود بلا دولة، والدولة بدورها لا يمكن أن توجد بغير الإنسان، فالدولة هي حياة اجتماعية منظمة. وعن طريق الدولة يتمتع الإنسان بحياة أكثر غنى ويصل إلى مستوى أعلى من الوجود، الأمر الذي لا يستطيعه لو أنه ترك وشأنه، على أنه من ناحية أخرى يجب ألّا ننسَ إطلاقاً أن ذلك نظام الذي تحتوي الدول ما هو إلا حياة الأفراد، ومنه يجب أن تأتي المثل والأماني التي تمضي بحياة الدولة ذاتها قُدماً إلى الأمام، وإذا كان من المهم أن يستخدم التنظيم بطريقة صائبة لتحقيق هذه الأهداف الجوهرية من الناحية الاجتماعية، إلا أنه يجب ألا يحملنا التحمس للتنظيم، إلى سحق تلك الحرية الفردية الضرورية لحيوية الكيان الاجتماعي أسوة بحيويتها للفرد نفسه.

تلك كلها ليست حقوقاً نظرية، بل هي حقوق عملية تماماً، استخلصها رجال من جنسنا بعد نضال طويل استغرق قروناً عدة، مدفوعين في ذلك بإدراكٍ عميقٍ للحرية. وفي الوقت الذي نثبت فيه ثورتنا، أصبحت تعتبر حقوقاً للإنجليزي له أن يتمسك بها، حتى ضد الملك وقد أصبحت مضمونة في القانون الأساسي، لا ضد سلطان الهيئة التنفيذية فحسب، بل تجاه سلطة الدولة بأكملها، بحيث لا يستطيع أي موظف حكومي أو جمعية

تشريعية أو محكمة قضائية، ولا الشعب كله أن ينكرها على الأقل الأفراد شأناً فالحرية -كما عرفتها محكمتنا العليا في عبارة بليغة- يجدر بنا أن نتأمل فيها في هذا العصر الذى يسوده الاضطراب الفكري:

- "ليست تعبيراً عن مجرد التحرر من القيود البدنية فحسب، بل هي حق الفرد أيضاً في أن يتعاقد وأن يشتغل بأية مهنة من مهن الحياة العامة، وأن يتروج وأن يكتسب معلومات نافعة، وأن يُنشِئ بيتاً وينجبَ أطفالاً، وأن يعبد ربه بالطريقة التي يمليها عليه ضميره، وأن يتمتع بوجهٍ عام بكل تلك الحقوق المعترف بها، منذ أمدٍ بعيدٍ في القانون العام باعتبارها لازمة لتحقيق السعادة للإنسان الحر تلك هي (نعم الحرية) التي من أجلها قامت الحكومات لتحقيقها"

_وعلينا ألّا ننسَ قط أن الدولة توجد من أجل الإنسان، وليس العكس

فما هو القانون؟!

أخشى أن أقول أنّ معظم الأشخاص يفكرون في القانون باعتباره مجرد قواعد للعقوبات الجنائية، أو لوائح لتنظيم المرور. مثل هذا الفهم بطبيعة الحال ناقص كل النقصان، ولكنه ليس أسخف من فهم هؤلاء الفلاسفة القانونيين الذين لا يرون في القانون أكثر من السلطة القائمة على تنفيذه؛ فالقانون هو مبدأ الحياة لذلك الكائن. وهو ليس مفروضاً من الخارج، بل

هو ينبع من داخل الجماعة نفسها. فكما يوجد شيء في طبيعة المادة يجعلها تعمل بوسائل معينة، وهي الوسائل التي نسميها قوانين الطبيعة فهناك كذلك شيء في طبيعة المخلوقات البشرية، والمجتمع الذي يكونه، يقرر كيف يتصرف المجتمع، وكيف يجب أن يتصرف أفراد هذا المجتمع كل منهم حيال الآخر، وهذا هو القانون في معناه الحقيقي. ويجب أن يفسر في صورة قواعد، وهذه القواعد لابد أن تنفذ بوساطة سلطة الدولة. وكلنا يجب ألا ننسَ إطلاقاً أن مصدر القانون ليس هو السلطة التي تطبق القواعد، بل هو الحياة التي تنبثق منها السلطة. وأن مصدر القواعد ليس السلطة، بل استخدام العقل في الحياة التي منها تنبع السلطة.

هذا ليس شيئاً اكتشفته الآن فقط..

بل هو شيء طالما ردده لنا كل عظماء رجال القانون على مر العصور؛ فالقانون كما قال "شيشرون " ينبع من طبيعة الأشياء، وهو يعرفه بهذه الكلمات، "هناك قانون حقيقي في الواقع وأعني به العقل الصائب..... وهو وفقاً للطبيعة موجود لدى كل الأشخاص، وهو أبدي لا يتغير. وهذا القانون يدعو الناس بأوامر إلى أداء واجباتهم، وبنواهيه ليمنعهم عن ارتكاب الخطأ. وأوامر ونواهيه تؤثر دائماً على الصالحين من الناس، أما الطالحون فلا تأثير له فيهم، وأبطال ذلك القانون بتشريع من صنع البشر مخالف للخلف القويم، كما أن تقييد عمله شيء غير جائز، أما إلغاؤه كلياً فأمر مستحيل، ولا يستطيع مجلس الشيوخ ولا الشعب أن يحلنا من التزامنا

بالطاعة، هذا القانون الذي لا يتطلب شخصاً معيناً لشرحه أو تفسيره وكان القديس (توماس الأقويني) والقديس (لوقا) يقولان في تعاليمهم أن تدبير القانون الذي يصنعه البشر والإكراه الذي يجعله فعالَ الأثر إنما يكمن في طبيعة الإنسانية، وأن السلطة إنما تمنع القوة فقط لما هو معقول وحق.
وكان (جرويتوس) يقول: أن بعض مبادئ العدالة العامة طبيعية وقال: إن القانون الطبيعي ليس إلا أملاً من العقل الصائب، الذي يشير إلى أن فعلاً ما يتضمن صفة الدناءة الأخلاقية، أو الحاجة الأخلاقية وفقاً لمطابقته أو عدم مطابقته للطبيعة العقلية، وأن مثل هذا الفعل يعد بالتالي إما محرماً وإما مباحاً بأمر خالق الطبيعة..... الله.

وقد ازداد الخلاف حده في السنوات الأخيرة بين أنصار نظرية القانون الطبيعي وبين الإيجابين أو الذين يدعون بالقانونين الواقعين وكلاهما في تقديري المتواضع مصيب في بعض الشيء ومخطئ في بعضه الآخر.
ولا يمكن الحصول على رأي صائب إلا بالجمع بين الرأيين فخطأ الأولين أنهم يخلطون بين الفلسفة الأخلاقية، أما الآخرون فإنهم يخلطون بين القانون والقوة. وكما أشار "بسكال " فيما يتعلق "بالحكومة " إن كلاً من العقل والقوة ضروري في أية فكرة صائبة عن القانون. فالقانون يغير سلطة الدولة التي تطبقه ليس قانوناً، بل هو آداب عامة، وكان (جرويتوس) يقول: أنّ بعض مبادئ العدالة العامة طبيعية، وقال: إن القانون الطبيعي

ليس إلا أملاً من العقل الصائب، الذي يشير إلى أن فعلاً ما يتضمن صفة الدناءة الأخلاقية، أو الحاجة الأخلاقية وفقاً لمطابقته أو عدم مطابقته للطبيعة العقلية، وأنّ مثل هذا الفعل يعد بالتالي إما محرماً وإما مباحاً بأمر خالق الطبيعة..... الله.

ومع ذلك فإن لم يكن هناك مناص لنا من الاختيار، فالواضح أن الاختيار سيقع على القانون الطبيعي، لأنّ الحق سيصبح قوة دون شك، أما القوة فلا تستطيع أن تصنع حقاً. ورجل القانون الحق يجب ألا ينسَ قط "أن القانون ينبعث دائماً من طبيعة الأشياء وأن صوته الصادق هو صوت العقل، لا صوت أي قاضٍ دنيوي، وأن قوته الحقيقية هي قوة الحاجة الفطرية لا قوة الجهاز المصطنع.

وقد كان هناك بعض الأخطاء في النظرية القديمة للقانون الطبيعي، وإن كان أساس الفكرة هو نفس الأساس الذي تقوم عليه فكرة قانوننا العام، أساساً صحيحاً تماماً. فليس في الإمكان بطبيعة الحال أن نستنبط نظاماً قانونياً بالتفكير المجرد في حقوق الإنسان. ومن ناحية أخرى فإن المرء -لا يكون واقعياً إذا تجاهل الطبيعة الأساسية للمجتمع، والعلاقات الضرورية القائمة بين أعضائه. فتجاهل الحقيقة القائلة بأن هذه العلاقات الضرورية تكون أساس القانون الذي يعيش به المجتمع، وأنّ أحكام القانون ليس إلا استنباطاً عقلياً من استقراء طبيعة تلك العلاقات، إنما هو تجاهل لأكثر الحقائق التي يجب أن يعالجها رجال القانون وضوحاً؛ فالإيمان بواقعية هذا

القانون الطبيعي، والإيمان بقدرة الإنسان على فهم ذلك القانون وتفسيره، والإيمان بقدرته على البلوغ بقواعد القانون التي تطبقها الدولة إلى حد الكمال عبر طريق النظام المثالي الذي يتطلبه القانون الطبيعي -ذلك الإيمان هو أسمى مطالب العالم اليوم إذا أردنا أن يحكمنا القانون لا الإرادة المستبدة.

مما تقدم لا يتبين أن القانون ضروري للنظام في المجتمع فحسب، بل إنّ التعبير الصائب، وتطبيق القانون الطبيعي الفطري في طبيعة المجتمع الحر ضروري لصيانة الحرية الفردية. فبالقانون وحده يمكن حماية حقوق الأفراد من قوة الدولة الساحقة، والقانون وحده يمكن للشعب. تفسير أن يمارس سلطة سيادته، وهذا هو أساس دستور الولايات المتحدة الذي أصبح النموذج البارز للحكومات الحرة في كل مكان وليس الدستور مجرد مجموعة من التعبيرات التافهة التي تحث على الورع، ولا هو مجرد دليل للعمل الحكومي موجه فقط لضمائر الموظفين العاميين، بل هو قانون أساسي وضع لممارسة سلطة السيادة، بواسطة الشعب والموظفين الذين يمثلونه.

_وهو يتضمن ثلاثة أفكار أساسية:

الأولى: أن للفرد حقوق أساسية معينة، أو حقوق لا تقبل التحويل لا يستطيع أن يتعدى عليها حتى سلطان الدولة نفسها.

والثانية: أن الناس يمارسون سلطة السيادة في المسائل التي تعنيهم وأنّ أهل الولايات المتحدة يمارسون حق السيادة في مسائلهم المحلية، وأنّ شعب الأمة يمارس حق السيادة في الأمور التي تمس الدولة بأكملها..
أود في هذا الجزء ألا أكون مطنباً في الحديث، وأحاول قدر المستطاع أن يكون الحديث بلغة سهلة تيسر وصوله إليكم.....!

ولما كانت منازعات شخص يتولاها غيره شيئاً فشيئاً، إما ظهور وكلاء الدعاوي والمحامين فقد جاء بعد ذلك، إذا كان على المتقاضي أولاً أن يحضر دائماً بشخصه حيثما تُجرى المحاكمة، ولا يسمح له بإنابة شخص آخر عنه، فلما أخذت المحاكمات تنتقل من مكان لآخر، أصبح ذلك الواجب عبئاً ثقيلاً جداً، وسمح للمتقاضين بأن يُنيبوا عنهم وكيلاً يمثلهم، واعتبر ذلك امتيازاً كبيراً يمنحه التاج في تلك الأيام. ومن الطريف أنه سمح للنساء بأن يكنَّ وكيلات للمتقاضين. وتتحدث سجلات القضايا عن القضايا عن قضية في القرن الثالث عشر مثلت فيها سيدة فعلاً أمام المحكمة باعتبارها وكيلة لأحد المتنازعين، ويؤسفني أن أقول لكم أن هذه القضية استشهد بها بعد ذلك للتدليل على أن في الإمكان إبعاد الشخص الذي لا يقبل حكم القضاء، ليحكم في قضيته غيابياً. وهذا ما كان من أمر هذه السيدة التعسة. ولكنني أعترف لكم بأن قلبي يتجه إليها عبر هذه القرون

كلها. ويكفي أن نفكر في شجاعتها، وإخلاصها، وحماستها، واستعدادها - رغم جهلها- لمواجهة قوى المنطق، والقانون والواقع.

سبق لنا وأن تحدثنا بإيجاز عن قصة القانون، ومتى ظهرت فكرة الدفاع بداية من فكرتها التقليدية وكيف تدرجت. واليوم سوف نكمل حديثنا بإيجاز أتمنى ألا يكون مُخلاً.....

وقفنا فيما سبق عند بداية قصة المرأة التعسة التي كانت تدافع عن رجل متهم ونكملها.....

كانت هذه المرأة تدافع عن هذا الرجل الذي جاءت لتنوب عنه....

وقد هزمت في النهاية، ولكنها لم تسكت ولم تقتنع قط، حتى أُخرجَت بالقوة من قاعة الجلسة.....

وإنّ كلّ ما أرجوه ألا يكون الوشاح الذي كان يغطي رأسها أو قبعتها قد أصابهما اضطراب خلال هذه العملية.... ولكنني لا أشك في أنه كان لموقفها بعض الأثر فيما حدث بعد ذلك...

ففي عهد إدوارد الثاني - وبصفة خاصة في حكم جيمس الأول- ترك للقضاة أنفسهم حق تعيين وكلاء للمتقاضين، وعهد إليهم باختيار أشخاص عرفوا بالعلم والفضيلة. ومما له دلالة لا تخفى، أنهم لم يعينوا قط امرأة لتولي هذا العمل. ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الظن بأن السبب في ذلك هو أن تلك القضية ظلت ماثلة دائماً أمام أعينهم. وعلى أية حال فإنني حين

أتيحت لي الفرصة لكي أدافع عن حق النساء في الاشتغال بالقانون، لم أجد قط أي رد على الرأي القائل بأنهن سبق أن قبلن كـ "وكيلات" للمتقاضين، وأنه لم يحدث قط ما يسلبهن أهليتهن لذلك. ومع ذلك فقد حدث في عهد جورج الثاني أن وضعت شروطاً أخرى لضمان المؤهلات المناسبة في وكلاء المتقاضين، فكان عليهم أن يمضوا فترة تمرين كما يفعلون الآن. وفي عام **1847** صدر القانون الذي لا يزال قائماً حتى الآن والذي يقضي بمنح الجمعية القانونية حق تقرير الاختبار، وضمان المستوى اللائق من العلم والمعرفة للقبول.... وتاريخ وكلاء الدعاوي قصير وبسيط، يبدأ من العصور التي أشرتُ إليها، ويستمر بالحالة التي لا يزال عليها حتى الآن. أما المحامي -المترافع- فقد جاء من طريق مختلف عن ذلك. والسبب أن هذين الشخصين كان يبدو أنهما منفصلان في بادئ الأمر -وقد وحدتم أنتم بينهما، في حين أننا لم نفعل ذلك بعد-هو أنه كان من المقرر في مرحلة متقدمة من التاريخ الإنجليزي، أن كل ما يقوله وكيل المتقاضي باسم موكله يعتبر ملزماً له، أما ما يقوله محاميه نيابة عنه، فلا يقيده على الإطلاق، لأن المحامي ليس وكيلاً مفوضاً عنه، والمحامي المسؤول حقاً حرٌّ في إبداء ما يريد من أقوال. ولم يكن المتقاضي في الماضي يمثل ومعه محامٍ واحد فقط، بل تأتي معه مجموعة من المحامين، يقول كل منهم كلاماً يختلف تماماً عمّا يقوله غيره، ولا يقول أي منهم شيئاً يقيد موكله أو يلزمه. ولكن سرعان ما انتظمت الأمور، وتجدون في "براكتون" أنّ المحامي قد أصبح في منتصف

القرن الثالث عشر شخصاً معترفاً به تماماً في أداء رسالة القانون... وفي عهد إدوارد الأول، كانت هناك نصوص خاصة -من الخير أن نذكرها- تعاقب بتهمة الخداع أيّ محامٍ يخدع المحكمة.... ولم تكن عقوبته هينة، إذ كان مصيره السجن، حيث بقي فترة طويلة. وقد حدث فعلاً -في أيام "ال ستيوارت" أن اتُهمَ محامٍ بأنه أزعج المحكمة، لأنه قد أعد دفاعاً طويلاً مملاً، لا داعي له وكتبه على ورق الغزال. فأمرت المحكمة بانتزاع الرق منه وإحداث فجوة ضخمة في وسطه وإدخال رأسه منها، وألزمته بأن يحضر في اليوم الأول من كل دور قضائي، وقد أدخل رأسه من خلال عريضة دفاعه. وهكذا كانوا.....

وكما ترون يعتبر النظام أمراً مهماً ذا قيمة بالغة، أما الطريقة التي تدرجت فيها المحاماة، فهي أصعب كثيراً من أن تشرح، فلا شك أن المحامين، ورجال القانون والمحكمين الدوليين والقضاة كانوا جميعاً يدرسون في الأصل معاً، في معاهد قانونية واحدة، ولكنهم انفصلوا في فترة تقع في عهد الاستيوارت، وعندئذ أصبحت معاهد القانون -وعددها أربعة- هي الوسيلة الوحيدة لتعليم المحامين وإعدادهم، وضمان تأهلهم بصور ملائمة وهأنذا قد عرضت عليكم تاريخاً قصيراً آمل أن يسهل فهمه، وهو بين الطريقة التي نشأ بها هذان الفرعان من فروع القانون. فلنفكر لحظة فيما آل إليه حالهما؟ وما هي المنزلة التي توارثوها؟

حسناً..... إنني أعتقد منزلة يمكن أن تصل إليها طاقات الإنسان، هو أن تصبح من خدام العدالة..... وصدقوني أنّ من أكبر الأخطاء أن يظن البعض أن المحامي وعلى الأخص رجل القانون، شخصٌ قادرٌ على تحقيق النصر لموكليه في ساحة القضاء بأية وسيلة، فالرجل الذي ينحدر إلى الخسة والدناءة بغية إحراز نصر لموكله، إنما هو عار على المهنة. وعلى كل شخص منا، حتى ذلك الصبي الذي يحمل محفظة المحامي، أن يذكر أنه في حدود قدرته الصغيرة إنما يساعد على تحقيق أمر أهم بكثير من مجرد إنهاء نزاع بين شخصين.....

إنه خادم للعدالة، وهو مطالب بأن ينزه نفسه عن الدنايا، ويحسن سلوكه، مراعياً كرامة وعزة المهنة التي يمارسها.

_فما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها رجل القانون؟

أن يكون لديه أولاً إحساس بالشرف، إذ بغيره تنقلب إلى أحقر المهن، وتهبط بالعقل البشري إلى أسفل درك. وينبغي أن تتوافر لديه شجاعة لا تنهزم، وعقيدة لا تتزعزع، وعليه أن يكون مستعداً لأن يتجاهل على الفور كل استحسان أو استهجان شعبي، وأن يذكر دائماً، أنه إذا استعذبت الأذن أصوات استحسان الجماهير، سواء أكان صاحبها قاضياً على منصة القضاء أو محكماً دولياً يجلس على مقعد قضائي دولي، أو محامياً في مقاعد

المحامين، وإذا أثارت الحماسة الشعبية العابرة تملقه، أصبح تدبير العدالة في خطر داهم على الفور.

ويجب ألّا يكون لشيء من هذا القبيل تأثيراً في سلوكه، كما يجب ألّا يسره مثل هذا الاستحسان.

قد تقولون لي: "وهل تؤمن حقاً بإمكان تحقيق مثل هذا المعيار الذي ذكرته دائماً، في كل ظروف الحياة العصيبة هذه؟ "وردي على ذلك هو: "أجل".

بل إنني أذهب إلى أبعد من ذلك، فإنكم إذا رجعتم بأبصاركم إلى الماضي، وجدتم أمثلة لشخص أو شخصين ممن كانوا أمثلة ملموسة للطريقة التي كان ينفذ بها ولكن لابد من الاعتراف بأن هذه ليست وجهة النظر الشائعة بين الرجال، وأعتقد أنّ علينا أن نجابه النظرة الشائعة، لعلنا نظهر بتصرفاتنا كيف أنها نظرة غير صحيحة تماماً، ولعلكم تذكرون أن "ثاكري" وصف أحد كبار المحامين بهذه العبارات:

"كان رجلاً عمل جاهداً لكي يهبط بالعقل الراجح إلى مستوى فهم الشيء العادي، وفي إدراكه الشديد لذلك، استبعد من عقله في حزم كل فكرة سامية أو عمل فاصل، وكل حكمة المؤرخين وفلسفتهم، وكل أفكار الشعراء بل وكل حصافة وخيال، وتفكير، وكلّ فن، وحب، وكلّ حقيقة، ليتمكن من السيطرة على تلك الأسطورة الكبرى التي يسمونها القانون، ولم يكن في استطاعته أن يغرس صداقة أو يمد يداً بإحسان، أو يظهر إعجاباً بعمل من

أعمال النبوغ، أو تلتهب مشاعره لمنظر الجمال، فقد كانت عيناه مغلقتين عن الحبّ والطبيعة، والفنون".

إنّه لتشهير ظالم بمهنة من أعظم المهن، كان "ثاكري" نفسه يتدرب عليه يوماً ما. وما أكذبه من تشهير، بل إنني أقول أنّ المحامين -على عكس تلك النظرة الضيقة إلى العالم - يشتغلون فرصهم إلى أقصى حدود الاستغلال. فما من أفق أوسع من أن تمتد إليه أبصارهم، وأنّ موضوع عملهم- ذلك الموضوع الذي يتضمن أعظم مجال لأنبل ما في العقل من طاقات. فما من معلومات تصل إلينا خطأ، وقد يكون علينا أن نعالج أكثر المسائل العلمية التي تتطلب اطلاعاً واسعاً، وما من حالة من حالات الأسرار الكثيرة التي تتعلق بالقلب البشري إلا وكان لها صلة بالقضايا التي علينا أن نبحثها. وما من معرفة أياً كان نوعها غريب على عتادنا الكامل.

والرجل الذي يقيد نفسه بدراسة كهذه، لا يحط من مكانة مهنة عظيمة فحسب، بل إننا نشعر في الوقت ذاته بارتياح عندما تتذكر أنه لا محالة فاشل فيها.

والآن -دعوني أضرب لكم- كما وعدتكم مثلاً أو مثلين عن الرجال الذين أظهروا لنا الذرى التي يستطيع المحامون بلوغها، فقد كان هناك رجل في القرون الوسطى يدعى "فرنسيس أوف سيلز" هو اليوم قديس، وكان الألوف من البؤساء يلتمسون شفاعته يومياً لدى صاحب العرش الخالق

المتعالي. وكان فرنسيس محامياً، وفي خلال نظر إحدى القضايا التي كان يترافع فيها، أخطأ -عن غير قصد- ذكر محتويات أحد المستندات، ولفت خصمه نظره أثناء رده إلى أن قضيته كلها تتألف من القراءة الخاطئة لمستنده، وهو ما كان ينبغي له أن يعرفه. وأحس الرجل بهلع وتأنيب للضمير، وقد ظن أنه أسهم في تضليل المحكمة، وبلغ به هذا الإحساس حداً جعله يتخلى عن الاشتغال بالمحاماة بعد ذلك، ولم تفلح جهود القاضي والمحامي الآخر اللذين أكدا له أنهما عرفا أن ذلك كان مجرد خطأ غير مقصود، كل ذلك لم يفلح في إقناعه بالامتناع عن مواصلة عمله... لقد هجر المهنة.. وأصبح قديساً عظيماً ذا شهرة واسعة.

وإليكم مثالين آخرين يتعلقان بأشياء علمية أكثر مما سبق ذكره...

فإذا ذهبتم إلى الفاتيكان، فستجدون رسماً فوق أحد جدرانه -وهو رسم ليست له على قدر فهمي أية قيمة فنية-ومع ذلك فإنني أعترف لكم بأنني أجد فيه مالاً أجده في أي رسم عظيم أو تمثال رائع... ويمثل الرسم رجلاً مهلهل الثياب، يدخل من بابٍ مفتوح.. إنها صورة "فاريناتثي" المحامي الإيطالي الكبير، الذي واجه الجموع الغاضبة، وتحمل سخط البابا لمحاولاته المتكررة وجهوده المتواصلة للحصول على الإنصاف والرحمة لموكلته التسعة "بياتريس سينتشي" التي نبذتها الدنيا وحرمتها الكنيسة.

ودعوني أقدم لكم مثالاً آخر، يسرني أن أستمده من سجلات تلك الأمة العظيمة التي لا يخالجني شك في أنكم جميعاً فخورون للترحيب بممثلها

العظيم المسيو "مانويل فوركاد" بيننا، فقد عاش في القرن الثامن عشر محامٍ فرنسي عظيم يدعى "مالزيرب"، وكان رجلاً خيراً، محبوباً في كل أنحاء فرنسا لكثرة إحسانه، كما كان محبّاً للعلم مغرماً بالأدب، وقد قاوم بعنفٍ كلَّ محاولة للتعرض لكرامة المحاماة واستغلالها، لعلمه أنها الدعامة التي يقوم عليها استقلال العدالة. وكان قد دُعي مرتين للاشتراك في مجالس الحكم، واضطر للتخلي عن المنصب مرتين؛ إذ كان من أشد المهاجمين لإساءة استخدام السلطة في تلك العهود، وأعلن أنه من أنصار حرية العقيدة، وعدم المحاباة في الضرائب، وطالب بإلغاء "خطابات السجن بغير محاكمة". ولو أن أحداً أصغى إلى رأيه لما وقعت فظائع الإرهاب خلال الثورة، ولكنهم تجاهلوه، فهبت العاصفة، وكان هو يومئذ في مأمن بسويسرا، يمارس أعز هواياته في علم النبات والآداب، وعندما قدم لويس السادس عشر للمحاكمة، وكان شيخاً في الرابعة والسبعين من عمره، وقد رفض غيره الاضطلاع بمهمة الدفاع عن لويس السادس عشر. فهذا احتج بشيخوخته، وذاك التمس لنفسه عذراً آخر، أما هذا الرجل فقد تطوع للخدمة قائلاً: "لقد دعيت مرتين للعمل في خدمة سيدي، عندما كان العالم كله يعتبر خدمته شرفاً، فهل أتهرب من خدمته الآن، والعالم كله يعتبر أداء مثل هذه الخدمة خطراً؟! "وهكذا أقدم هو ومساعده الشاب الشجاع - وهو رجل يجب أن يظل اسمه مذكوراً هو الآخر على النهوض بتلك المهمة العسيرة، بل والمستحيلة... مهنة الدفاع عن لويس السادس عشر أمام مثل تلك

المحكمة وتخيلوا معي قليلاً قاعة المحكمة، وقد ازدحمت بنسوة أصابهن الجوع بالجنون وبلغ منهن الجنون والغضب مداهما، بسبب أخطاء كن يشعرن بها منذ أمد بعيد، ولكنهن يعتقدون أنها لم تظهر إلا حديثاً. وفي قفص الاتهام يقف الرجل الذي كان ملكاً لفرنسا، والذي تعلم هذا الشعب أن يعتبره مصدر كل مصائبه. وعلى منصة القضاء مجموعة من الناس لم يكونوا قضاة في يوم من الأيام، هم الذين وجهوا التهم للرجل الذي جاؤوا ليحاكموه، وهناك جماعة من الصالحين في المؤخرة، ورجال الحرس الوطني بملابسهم الرثة، وإلى جانب ذلك كله هياج وصخب جمهور فرنسي فقد عقله...

ووقف "مالزيرب " الشيخ العجوز في الوسط، يتكلم في رقة وآداب وكرامة كسابق عهده، مخاطباً لويس السادس عشر بنفس الألقاب الملكية القديمة، التي كانت تستخدم دائماً أيام مجد فرساي... وأخيراً لم تحتمل أعصاب المحكمة تلك المعاملة، فقال له رئيسها في حدة: "من أين لك تلك السلطة التي تخونك، يا سيدي، أن تدعو لويس كأبيه بالاسم الذي ألغيناه؟!" ونظر الشيخ إليهم قائلاً: "من أين؟ من ازدرائي لكم ومن حياتي كلها.". وكانت النتيجة متوقعة، فقد تبع "مالزيرب" سيده إلى المقصلة ولكن بعد أن حصد منجل المقصلة الأحمر رؤوس ابنته وزوجها، وأحفاده أمام عينيه. تلك كانت العقوبة التي عرف الرجل من قبل أنه سيدفع ثمنها وكان على استعداد لدفعه في سبيل ولائه لسيده السابق. وما من شك في أن

أحاسيس كثيرة تصل إلينا عبر القرون، ونستطيع أن نشعر اليوم بالرقة، والأدب الساحر الذي ولى منذ زمن بعيد، وقد لا يرجع قط، ليعيد لهذا العالم جماله وبهجته. لقد منح الشجاعة، والمعرفة، والعلم... منحها جميعاً بلا مقابل، للسيد الذي نبذ نصيحته، فساقه تصرفه هذا إلى الحظر الذي واجهه.

سيداتي... سادتي.

لابد أن نعرف أمثال هذه الأمور وأن تظل عالقة بالذهن. ويجب أن تصبح جزءاً من برنامج الدراسة والتمرين لكل طالب حقوق. إن دراستنا ليست مجرد جمع قواعد من كتب سوداء، ووثائق قديمة متعفنة، فالرجال الذين رفعوا من مكانة مهنتنا، والذين كشفوا لنا عن الذرى التي يمكن أن ترتقي إليها، يكونون أيضاً بسيرهم جزءاً من تعاليمنا يجب أن يدرس في كل مدارس الحقوق عندنا. أنني أقول لكم: يا لها من غاية تلك التي نعمل من أجلها. هل في العالم ما يماثلها؟ إننا إذا ألقينا بأبصارنا إلى الوراء، وقلبنا صفحات التاريخ وتطلعنا قليلاً إلى دهاليز الزمن الفسيحة، فماذا نحن واجدون؟ أجناس بشرية تخلف أجناساً. وأسرة مالكة تتبع أسرة مالكة، كأشباح من الصور في فيلم مؤثر... غزاة بجيوشهم الجرارة، مركز الفوز لحظة، ثم يتلاشون، وفي أعقابهم صفوف إثر صفوف من أسرى مكلبين

بالحديد، ونساء جالسات منكسات الرؤوس بجوار أطلال منازلهن المحترقة، يولولن صائحات: "أعيدوا لنا موتانا!". ومع أشباح المجاعة والأمراض، ترى كل مظاهر الخراب والرعب، التي سارت وستسير إلى الأبد في أعقاب أسلحة الحرب ومواكبها. إن أمجاد الملوك والأباطرة الزاهية، تضيء الاستعراض العابر لحظة، ثم تمضي... أشباح تبرز من الظلام إلى الضوء، ثم تعود من الضوء ليطويها الظلام من جديد. أما من شيء في كل هذه الأشياء المتقلبة يستطيع أن يقف ثابتاً؟ أما من حقيقي واحد يجعل الحياة جديرة بالعيش؟ وجوابي على ذلك هو: " نعم هناك روح العدالة وفكرتها، وعلينا نحن أن نعمل للمحافظة عليها لكي تبقى، على الرغم من أن الحضارات التي نعرفها اليوم سوف تنهار، والمدن العظيمة القائمة في أنحاء المعمورة ستعود مرة أخرى إلينا في القفار التي انبثقت منها. لقد كانت العدالة إحدى آلهة الرومان. ولا شك أنها يمكن أن تبقى كذلك بالنسبة لنا - من غير أن نخون معتقداتنا- آلهة يعرف الكل رموزها... عرش لا تزعزعه العواطف، ونبض لا تستطيع العاطفة إثارته. وعين معصوبة لا ترى سبباً للرضا أو الغضب، والسيف الذي يسقط على كل مذنب في مساواة مؤكده وقوة لا تحيز فيها. تلك هي الآلهة التي أقسمنا جميعاً على خدمتها، والتي نستطيع أن نجتمع في المعبد الذي يضم محرابها.

أوجه الحق وجهة نظر:

~ تعدد أوجه الحق ~

إن المنطق القديم يرى أنّ للحقيقة وجهاً واحداً، ولهذا إذا كان فريقان يتنازعان على شيء فإن الآخرين يصدرون حكماً سريعاً بأن أحدهما يجب أن يكون محقاً والآخر مبطلاً،

ولكن المنطق الحديث يرى أن الحق لا يمكن أن يحتكره فريق من الناس دون فريق آخر،

فكل فريق ينظر إلى الحق من جانبه الخاص به وهو لا يدري بأن للحق أوجهاً أخرى،

ولكن غالباً ما يؤدي التنازع إلى تطرف كل فريق في ناحيته الخاصة به، ويبتعد كلٌّ منهما عن الموضوع الأصلي الذي اختلفوا فيه، فالتنازع لا يمكن أن يكون معتدلاً، فمن طبيعته التطرف، ولهذا نجد المتنازعين يخرجون دائماً عن الاعتدال ويبتعدون عنها يوماً بعد يوم كلما طال أمد النزاع!!!

الهزل والتنظيم المديني (أفلاطون):

أفلاطون هو الفيلسوف الأول في مسيرة التنظير للسخرية والهزل، وأعتقد أن جزءاً كبيراً من آراء أفلاطون حول الشعر ينسحب على خطاب الهزل، بوصفه خطاباً مُخرباً ومدنساً، بل إن بعض هذه الآراء والأحكام جاء بناءً على فهم مخصوص للشعر عند أفلاطون، فهمٌ يختزل وظيفة الشعر في اللهو والتسلية والهزل، بحيث يسهم في حجب الحقيقة وصرف الناس عن الجد، وإلباس الحق ثوب الباطل والباطل ثوب الحق. وهذا ما يُلحق الأذى بالأفراد ويفضي إلى إفساد المدينة.

وعلى هذا الأساس كان الشعر عند أفلاطون مُرادفاً للهزل، خطابُ الشعر خطابُ غير جاد ولا يهمه مصير المدينة، فكل ما يشغل الشعراء هو خلق متعة عابرة في نفوس الأفراد. ويفسّر أفلاطون ذلك بكون الخطاب الشعري يُغذّي الانفعال بدلاً من أن يضعفه، ويجعل له الغلبة، مع أن من الواجب قهره إذا شاء الناس أن يزدادوا سعادةً وفضيلة.

فالشرّ أو الأذى أصله الانفعال، لأنه مخزن اللذات والميول الفردية. ولما كان الشعر يُغذي الانفعال لدى الأفراد، صار أداةً لإلحاق الأذى وطريقاً لنشر الفساد، ذلك أن الخير لا ينتشر بين الناس إلا إذا ضعفت انفعالاتهم، أو غابت وحلّ محلها التعقل. ولذلك يقع خطاب التعقل أو الخطاب الفلسفي في تصور أفلاطون، مقابلاً للخطاب الشعري، فالأول يضعف الانفعال

ويقوي العقل، والثاني يضعف العقل ويقوي الانفعال. وعليه، ففي الوقت الذي يطرد فيه أفلاطون الشعراءَ من المدينة الفاضلة، يعتلي الفلاسفة فيها سدة الحكم.

_أين نحن الآن؟

ذات يوم أبدى أحد الأشخاص ملاحظة للفيلسوف البارز "ويتجنشتاين" تساءل فيها: كيف كان الأوروبيون أغبياء في العصور الوسطى قبل عصر كوبرنيكوس، إذ نظروا إلى السماء وظنوا بأن الشمس تدور حول الأرض. والشيء المؤكد أن قدراً متواضعاً من الفطنة الفلكية كان كفيلاً بأن ينبئهم بأن العكس هو الصحيح، ويروى أن " ويتجنشتاين " أجاب بقوله: (أوافق، بيد أنني أتساءل: ماذا يمكن أن تكون عليه الحال لو أن الشمس كانت بالفعل تدور حول الأرض؟.) (جيمس بيرك، **1994** ، ص**13**)

إن التفكير في الإجابة على تساؤل " ويتجنشتاين " يأخذنا إلى طريق واحد، الطريق الذي كان يود أن نقف عنده مدهشين! ما هو الفرق حين نعرف أن الشمس تدور حول الأرض، أو أن الأرض تدور حول الشمس؟ الجواب. أننا سنتعامل بنفس الحالة والطريقة مع تلك المعرفة المكتسبة. بمعنى آخر

سنكيف نظام حياتنا بناء على تلك المعرفة، نقطة جدل، تعيدنا للسؤال الذي حير العلماء، هل المعرفة ذاتية أم موضوعية؟

نحن دائماً نلتمس الوصول إلى تفسير شامل وواضح لحقيقة الظواهر من حولنا، وأسلوب عملها، ومن أجل تحقيق هذه النظرة الشاملة، نستحدث نظريات للتفسير تسبغ على ظواهر الطبيعة هيكلاً محدداً لها، إذ نصنف الطبيعة داخل نظام مترابط، فيبدو لنا أنها تفعل ما نقول نحن أنها تفعله!

واليوم، ونحن نعيش حضارتنا المعاصرة، هذه الحضارة مبنية على تصورات مكتسبة من المعرفة التي وصلنا إليها، والتي تؤثر في سلوكنا وأفكارنا في الحياة، كما كانت المعرفة القديمة تؤثر في المفاهيم السابقة في أولئك الذين عاشوا معها في الماضي، وها نحن، أيضاً، مثلنا مثل من سبقونا في الزمان الماضي، نستبعد الظواهر التي لا تتلاءم مع نظرتنا ومعرفتنا الجديدة، لأنها في رأينا خطأ أو خرافة أو شيء عفا عليه الزمن، ونقول كما قال أسلافنا: إننا نعرف الحقيقة الأصلية!

إن حلول اليوم، هي مشكلات الأمس، وكذلك حلول اليوم، هي مشكلات الغد، وستظل المعرفة تكتشف بصور مختلفة، وطرق متعددة، وتبقى الحقيقة الثابتة أننا نكيف ظروفنا وحياتنا وفقاً للمعرفة الجديدة، هذا هو التصرف المشترك فيما يخص المعرفة بالنسبة للبشرية عموماً. أما المعرفة في

ذاتها، سنظل في كل عصر تصبغ بصبغة الحقيقة والتطور، حتى يأتي عصر آخر جديد، ويصبغها بصبغة التخلف!

لو نلاحظ النمط السريع السائد في حياتنا اليوم، وثورة الإنتاج والاستهلاك اليومي، واستغلال كل موارد الطبيعة حتى المخلفات والفضلات، وكذلك الوقت الذي أصبحت الثواني فيه، تعني الشيء الكثير في هذا العصر، في خلال ثواني يمكن إبادة العالم بأسره، كمية الأسلحة النووية المنتشرة الآن، كفيلة بالقيام بمهمة مثل هذه في عدد محدود من الثواني، هذه الأنماط التي نعيشها اليوم هي نتاج لاكتشافاتنا المعرفية، أو بالأحرى ما نعتقد أننا اكتشفناه، فمعرفة سرعة النجوم من حولنا، وحركة الكواكب، ثم قياس سرعة الصوت وسرعة الضوء، والمعلومات التي كشفت لنا أنّ الكون من حولنا، يسير في صور متعددة، من الدوران السريع والخاطف، لم تكن هذه المعلومات لتجعلنا نبقى أسرى عادة المشي الرتيبة، أو استخدام وسائل نقل بطيئة كالحمار أو الحصان، وبالتالي أصبحنا نحاول أن ننسجم مع هذا الرتم السريع الذي تلقيه علينا المعلومات الكونية المحيطة والمكتشفة مؤخراً. وباتت اختراعاتنا تبحث عن الأكثر سرعة دائماً، وكأننا (لو قدر لأحد من القدماء أن يرانا) نهرب من أمر يلحق بنا، أو نسعى في بحث عالمي جماعي عن كنزٍ مفقودٍ مجهول المكان!!

لقد أصبحت قيمة الوقت بالغة الأهمية، فالإنسان الذي كان يعيش قبل آلاف السنين – على سبيل المثال – لم يكن يشعر بثقل الوقت عند مرور الأيام بل الشهور في رحلة قافلة ما، بين الشمال والجنوب، لأن نسبة الوقت له آنذاك، مرتبطة بفترات متباعدة، مثل المناسبات الكبيرة خلال السنة، أو بمواسم المطر، أو مواسم تغير الطبيعة، أما نحن، وتلك الساعات التي قمنا من خلالها، على تقسيم فترات اليوم والليلة، إلى أجزاء صغيرة جداً، صرنا مطالبين باستغلال الوقت بشكل يفوق طاقتنا، نظراً لأن المهام المطلوبة كثيرة جداً، والسرعة في تأديتها أصبحت رمز من رموز العصر الراهن!

كنت أفكر دائماً في حال الأمم السابقة، كيف كانت تسير حياتهم، مع تلك الكميات الهائلة من المعرفة الخاطئة، أو الناقصة في نظرنا؟؟ ولما قرأت ما ذكره "وينجشتاين" لعلي وجدت تفسيراً مقنعاً لحدٍ ما، أن كل أمة تعيش وفقاً للمعرفة التي وصلت إليها، وصاغت تلك المعرفة بنية أفعالهم وأفكارهم وحضارتهم، وبالتالي كانت المؤشر الموثوق الذي يقودهم إلى الحقيقة.

إن من يتبادر في أذهانهم المقارنة الخاطفة السريعة بين العصور السابقة وعصرنا اليوم، تلك المقارنة التي تبرق في الذهن كومضة، دون تفكير عميق، أو تحليل، أو قراءات تاريخية، ويظن من خلالها، ومن خلال ما يشهده العصر الحالي من نهضة الكترونية وعمرانية ووسائل اتصال

ومواصلات رهيبة وغزو للفضاء وتقنية طبية عالية، إمكانية القول أن المعرفة التي نملكها اليوم هي الأفضل والأكثر جدارة من تلك المعرفة التي كانت بأيدي -على سبيل المثال - البابليون أو الفراعنة. الذين يتبادر في أذهانهم مثل هذا التصور، يغيب عنهم أمر مهم جداً، أننا نقيس الفروق دائماً وفق نظرتنا للمعرفة (المعرفة الذاتية)، فنحن محاصرون بدائرة معارفنا تجاه الأمور والأشياء من حولنا، وقد نعمي أعيننا عن الآفات التي سببتها المعرفة الجديدة، والتي لم يكن بمقدور إنسان من العصور القديمة أن يتصورها على الإطلاق، فالتقدم الطبي الذي نعيشه اليوم، وإنقاذ الناس بالعقاقير واللقاحات التي ساهمت في إنقاذ ملايين البشر، والعمليات الجراحية الدقيقة التي أصبحنا قادرين على القيام بها بنجاح، وبشكل متكرر ومذهل، رافق ذلك، جنباً إلى جنب، انتشار وظهور أمراض فتاكة وقاتلة، وتدهور كبير وملحوظ، في صحة الإنسان الجسدية والنفسية والذهنية، نتيجة لمخلفات المعرفة الصناعية، والتلوث البيئي والضوضائي والغذائي المنتشر بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

ارتجال المرافعة:

لقد جرت العادة على تقسيم المرافعة إلى مقدمة أو تمهيد، ثم عرض الموضوع، يليه المناقشة وهي لبُّ المرافعة وجوهرها.

وخرج البعض على هذه العادة فلم يأبه المقدمة ولم يقسم المرافعة إلى قسميها التقليديين العرض والمناقشة وإنما كان يسوق الوقائع ويناقشها معاً، حتى إذا انتهى من السرد سقطت أدلة الخصم من نفسها، والمحامون يكونون مستعدين عند قبول الوكالة لأن يلاقوا وهم يؤدون واجبهم من العقبات والأخطار ما يلقى الجنود في الميدان من طوارئ ومفاجآت وقيل أن المرافعة تمثل العدسة التي تكشف للقاضي التعاريج والمنحنيات الدقيقة التي يعتمد عليها الخصوم في تكييف المنازعة وتوجيهها نحو مصلحتهم والقاضي مهما كان ذكياً فطناً ومهما توافر وقته لبحث الخصومة المعروضة عليه في حاجة لذلك المنظار، يساعده على ملاحظة تلك الوقائع وقد تكون من أهم النقط التي توجه تقديره لمصلحة أحد المتخاصمين؛ فيقضي له ولولا اكتشافها لقضاء الخصم على الآخر ويتعين أن يركز المحامي وينتبه حتى لا ينسى أو يقدموا نقطة على أخرى، وأن يكون ثابتاً لا يهتز أو يضطرب إذا فوجئ بما ليس في الحسبان، صبوراً موطداً النفس على سعة الصدر مهما تعرض للمقاطعة.

وأخيراً فإن المحامي يستعمل قوة حجته وسلامة منطقه وجزالة عبارته وسحر شخصيته وشحذ كل حواسه للوصول إلى عقل ووجدان قاضية.

الأسلوب واللغة:

ليس ضرورياً أن تكون كل المرافعة بألفاظ مقعرة وباللغة العربية الفصحى، ولكنه يتعين الجمع بين الاثنين بحيث يستطيع المحامي أن يدفع الملل والرتابة بعيداً عن قاضيه

للدفاع بكامل حريته؛ فالمحامي يقف غالباً ليدافع عن متهمٍ أحاطته النيابة والبوليس بسياج متين من الأدلة والبراهين وأحاطه الرأي العام وصحفه، بجرائده بحكم قاسٍ سبق به حكم القضاء وليس للمتهم الأعزل إلا ذلك الرجل الذي وقف علمه وفضله ولسانه على الدفاع عنه فإن نحن ضيقنا عليه الخناق وحاسبناه على كل لفظ يفلت منه، أو تعبير يسبق به لسانه لم نمكنه من أداء واجبه. فحرية الدفاع ملك للمحامين وأعطيت لهم لمصلحه المواطنين جميعاً، وليس لأحد أياً كان أن يعتدى عليها.

ولقد وقف محامٍ فرنسي مشهور يترافع في قضية، فنسب إلى النائب المترافع أنه لجأ في مرافعته إلى استغلال الشهوات الضارة وأن هذا ليس بالأمر الحسن، فعد قوله هذا مخالفه تأديبية وحوكم من أجلها، وكان دفاعه عن نفسه أن قال: "أما شخص النائب المترافع فمنفصل عن مرافعته كل الانفصال، فشخصه محل إجلالي واحترامي، ولا أبيح لنفسي أن أهاجمه،

ولكني أهاجم مرافعته، فهي ملكي ومن حقي أن أمزقها إرباً وأن أطأها بقدمي" وقد أدانته محكمة الاستئناف بباريس، وقالت: إن من حق المحامي أن يدافع عن موكله ولكن ليس من حقه أن يهاجم؛ فردت عليها محكمة النقض: بأنه لا دفاع بغير هجوم أننا إذا ألزمنا المحامي أن يقيس ألفاظه ومعانيه، وأن يخشى ما قد يُعطى لها من تفسير لم يقصده، وأن يرهب ما قد تؤدي إليه من معانٍ لم تخطر له ببال، فإننا نكون قد قضينا على كل مرافعة ارتجالية، وأطفأنا جذوة البلاغة القضائية، لأنه لا مرافعة بغير ارتجال.

حرية المرافعة:

ولقد حرص المحامون دائماً أن يكونوا أحراراً في مرافعاتهم، مشتغلين فيما يتخطونه من خطة ولا يخضعون لتوجيهٍ أياً كان مصدره. فلا هم خاضعون لتوجيه القاضي ولا لتعليمات صاحب القضية، بل مؤدون رسالتهم بما تملي عليهم ضمائرهم لا يرهبون أحداً ما داموا لا يعتدون على أحد إلا إذا اعتدى عليهم وما لهم اعتداء إلا بالقدر الذي يتطلبه الدفاع..... فإذا أحسّ بضغط من أي نوع كأن تعثرت كلماته وضعفت حجته وفقدت آراؤه جرأتها وانطلاقها ولولا حرية الدفاع لضاعت الحقيقة بين الناس، إذ لا تجد من يعبر عنها ومتى ضاعت الحقيقة ضاعت العدالة التي هي أساس الحكم وبغيرها تسود الفوضى ولا يقوم نظام. والمحامون هم أساس ذلك النظام وهم روح العدالة وإذا كانوا لا يكتبون الأحكام؛ فإنهم يعدون لها ببحوثهم ومرافعاتهم؛ فيقدمون للقضاء المادة الأولية لصناعته وأولى مميزات المترافع الجيد، هو التواصل بحيث يشعر القاضي أن هناك رسالة موجهة من ذهن وقلب المحامي إلى ذهنه وقلبه. ويجب أن يكون الإلقاء بالأسلوب الطبيعي حتى لا يخيل للمستمع أنك قد وضعت في مرافعتك حتى تصبح محامياً محترفاً من الطراز المترافع لأن الناس تتجمع حول المحامي المفعم بالطاقة! أو مولد الطاقة البشرية صاحب الابتسامة

الساحرة الذي يجعل الآخرين في حالة استجابة دافئة له دائماً، عندما يجعل مرافعته له طبيعية كالحديث الودي الدافئ الجميل الممتلئ حيوية وصدقاً.

وعند بداية المرافعة لمخاطبة القاضي؛ فيستحسن ألا تبدأ بالعجل فتلك سمات المبتدئين بل تستنشق نفساً عميقاً وتنظر إلى قاضيك للحظة واحدة، وإن كانت هناك ضجة في ساحة المحكمة فترقب قليلاً حتى تزول، ثم ابدأ مرافعتك كما تريد بكل تلقائية وابعث فيها الحياة بكلماتك المضيئة.

فقد تكون المرافعة جيدة الأفكار وحسنة العبارات والأسلوب، ثم لا تظفر بإلقاء جيد فتضيع فائدتها إذ لا يفهمها السامعون ولا تجذب انتباههم، وقد تكون أقل من ذلك في إعدادها ولكن جودة إلقائها تنهي إلى السامعين كل جزئية منها، فتكون فائدتها أكبر وأكثر.

خصائص السلوك الصادر عن الكبت:

أولاً: الطابع الرمزي

ينجم عن كبت الدافع منعه من التعبير السوي الصريح عن نفسه بالقول أو الفعل؛ لذا غالباً ما يعبر عن نفسه بصورة رمزية، في الأحلام وأحلام اليقظة وزلات اللسان والقلم وفي أعراض الأمراض النفسية كالمخاوف الشاذة والمشي أثناء النوم والإسراف في غسل اليدين أو كما يبدو في مشكلات الأطفال السلوكية كقضم الأظافر، والذي غالباً ما يكون تعبيراً رمزياً عن عدوان مكبوت لا يستطيع الفرد صبه على من اعتدى عليه فيصبه على نفسه، وكالتبول اللا إرادي الذي كثيراً ما يكون تعبيراً لا شعورياً -غير مقصود- عن قلق شديد يكابده الطفل والغضب المكبوت لدى الطفل قد يبدو في كسره بعض ما تحبه أمه من أبيه، أو يبدو في رفضه تناول الطعام. والطفل الذي يكره أباه كراهية لاشعورية قد لا يبتسم لأبيه، أو يسارع إلى تلبية أوامر أمه دون أبيه، أو يمزق صور الرجال من الصحف المصورة، أو يرى في نومه إن أباه قد سافر) والرحيل ما يكون رمزاً للموت وقد يحلم الشاب أنه يصارع ويقهر رجلاً من ذوي السلطة والنفوذ كأحد رجال الشرطة أو الرؤساء، أو يحلم بأنه يقتل ثعباناً، أو حيواناً ضارياً أو غير ذلك مما يرمز إلى الأب المكروه وكثيراً ما يبدو الدافع الجنسي

المكبوت في الولع بالقصص الداعرة والصور العارية والنكت النابية والرسم على الحيطان وممارسة العادة السرية.

وهذه زوجة كانت تسرف في الحديث عن سعادتها الزوجية، وكانت أثناء حديثها تخرج خاتم الزواج من إصبعها ثم تدخله فيه بحركة عصبية لا شعورية، وقد ذكرت لمحدثيها أنها نسيت الذهاب لاستقبال زوجها العائد من السفر بعد غيبة أسبوع، وقد رأت في نومها أنه أصيب بمكروه..... لقد كانت تصرح بأنها تحب زوجها حبّاً شديداً، وزوجها يؤكد دعواها، والناس يشهدون بذلك، لكن التحليل النفسي كشف النقيض، وسرعان ما كان فراق!!!!

....

ثانياً: الطابع القهري:

كذلك يغلب أن يكون السلوك الصادر عن الدوافع المكبوتة سلوكاً قهرياً أي يحدث بالرغم عن إرادة الفرد. وهذه حال الشخص الذي يجد نفسه مرغماً على الإسراف في التدخين أو في غسل يديه أو حال الموظف الذي لا يستطيع منع نفسه من الاحتكاك. برؤسائه حتى كان على يقين من أنه سيضار من هذا الاحتكاك.

وقد يتخذ السلوك القهري طابعاً إجرامياً فإذا بالفرد تمتد يده رغماً عنه إلى سرقة شيء لا حاجة له به أو إشعال النار في كومة قش. دون مبرر أو إصرار سابق كأنما تحركه يد ساحر.

الطابع الغريب والشاذ يغلب أن يكون السلوك الصادر عن الكبت سلوكاً غريباً أو شاذاً أو سخيفاً في نظر الفرد والناس. فالخوف من ثعبان أو سيارة داهمه خوف مفهوم لكن الخوف الشديد من الفئران أو من عبور الشوارع خوف شاذ غير مفهوم، والدوافع المكبوتة قد ترغم الفرد على أن يكون منقبضاً حتى في الظروف السارة البهيجة أو ساخطاً على كل عمل يقوم به، أو متهيباً من كل جماعة يخشاها أو غيوراً حتى من أطفاله، أو متوجساً كلما سافر بالقطار مع أنه يعرف سلوكه هذا غريب وغير مقصود، ومن مظاهر هذه الغرابة أيضاً أن يتنافى السلوك مع ما يعرف الناس من خلق الفرد، كالسرقة التي يرتكبها تلميذ مثالي الخلق، أو الخطابات المنحرفة التي تكتبها فتاة عرفت بالاستقامة، أو الجريمة الخلقية يرتكبها شخص عُرِفَ بالورع والتقوى.

....

أ.أضرار الكبت:

بالرغم من أن الكبت وسيلة دفاعية أي تدفع عن الفرد ما يسبب له القلق والشعور بالذنب إلا أنه ينطوي على عواقب وخيمة منها:

1-الكبت خداع للنفس: مثلاً من يعاني كبتاً جنسياً ينكر- مخلصاً في إنكاره- أن للدافع الجنسي سلطاناً عليه، وهذا يمنعه من التماس النصح لحل أزمته الجنسية فتظل قائمة وغير محسوسة.

2- انشطار الشخصية: مما تقدم نرى أنّ الكبت يشطر الشخصية شطرين شطر يعترف وشطر لا يعترف شطر يريد وشطر لا يريد، شطر يحب وشطر يكره، شطر يخاف وشطر لا يخاف وهكذا بحر من الصراع والانقسام النفسي وحرب داخلية بين جانبي الشخصية مما يفضي إلى توترٍ موصولٍ لا يعرف الفرد له أصلاً ولا سبباً وقد يلجأ الفرد إلى أساليب شاذة ملتوية من السلوك لتخفيف من هذا التوتر.

3- الكبت عملية غير اقتصاديّة: لأن فيه خسارة مزدوجة وتبذيراً لطاقة الفرد. ذلك أنّ الكبت لا يعني استبعاد الدوافع من حيز الشعور، بل يعني فوق ذلك الوقوف لهذه الدوافع.

بدون لغة:

علماء النفس يطلقون معنى اللغة على مجموع الإشارات التي يعبر بها عن الفكر، فنحن عندما نتحدث مع الغير فإنه من الواضح أننا نطلق بألفاظ نرتبها حسب المعنى، وعندما نتحدث لأنفسنا لا ننطق بألفاظ ولكننا نرتب المعاني حسب الصورة المنطوقة مما يبدو معه أن كل تفكير يحتاج إلى تعبير وأن كل تعبير يحتاج إلى تفكير، إلا أن مسألة اللغة والفكر ظلت موضوع سوء تفاهم بين الفلاسفة والعلماء فهل يمكن قيام فكر بدون لغة؟ بمعنى آخر هل اللغة والفكر منفصلان عن بعضهما أم أنهما مظهران لعملية نفسية واحدة؟

التحليل:

اللغة والفكر منفصلان عن بعضهما

يذهب أصحاب الاتجاه إلى التمييز بين اللغة والفكر

ويفصلون بينهما فصلاً واضحاً، ويعتبرون أن الفكر سابق اللغة وأوسع منها، لأن الإنسان يفكر بعقله أولاً ثم يعبر بلسانه

ثانياً، لذلك قد تتزاحم الأفكار في ذهن الإنسان ولكنه يعجز عن التعبير عنها مما يجعل اللغة عائقاً للفكر ولعلّ هذا ما يدفع بالإنسان إلى الاستعانة بالإشارات لتوضيح أفكاره أو اللجوء إلى وسائل بديلة للتعبير اللغوي كالرسم والموسيقى وغيرهما وهذا ما أكده "برغسون" حين قال:

"اللغة عاجزة عن مسايرة ديمومة الفكر" بمعنى أن تطور المعاني أسرع من تطور الألفاظ، فالمعاني بسيطة متصلة بينما الألفاظ مركبة منفصلة، ويقول فاليري (أحد الشعراء الفرنسيين)

"أجمل الأفكار هي تلك التي لا نستطيع التعبير عنها"

بمعنى أنّ اللغة عاجزة عن إبراز المعاني المتولدة عن الفكر إبرازاً كاملاً. فلا يمكنها أن تجسد كل ما يختلج في نفس الإنسان.

وهكذا فالنتيجة التي ينتهي إليها أصحاب الاتجاه الثنائي أن الفكر واللغة منفصلان عن بعضهما فالقدرة على التفكير لا تعني بالضرورة القدرة على

التعبير مما يؤدي إلى عدم التناسب بين القدرة على الفهم والقدرة على التبليغ. لكن الإنسان يشعر بأنه يفكر ويتكلم في آنٍ واحد، والواقع يبين أن التفكير لا يتم بدون لغة. فالفكر بدون لغة مجرد شعور.

لا يمكن الفصل بين اللغة والفكر

يذهب أصحاب الاتجاه الواحدي إلى عدم التمييز بين اللغة والفكر فهم لا يفصلون بينهما ولا يرون وجود فرق بينهما بل يرون أنه لا يمكن أن يوجد فكر بدون لغة كما لا توجد لغة من دون فكر فاللغة ليست مجرد أداة للتبليغ والتعبير، بل هي الأساس الذي يقوم عليه التفكير ومن بين الفلاسفة الذين يؤكدون على وجود وحدة عضوية بين اللغة والفكر الفيلسوف الألماني "هيجل" الذي يرى أن الكلمة تعطي للفكر وجوده الأسمى وأن الرغبة في التفكير بدون كلمات لمحاولة عديمة المعنى كما أن اللغة عند "جون لوك"

هي علامات حسية تدل على الأفكار الموجودة في الذهن، وهذا يعني أن هناك تطابقاً بين الفكرة ودلالة الألفاظ. كما يقول "ستالين":

مهما كانت الأفكار التي تجيء إلى فكر الإنسان فإنها لا تستطيع أن تنشأ وتوجد إلا على مادة اللغة "ليس ثمة تفكير بدون رموز لغوية"

وهكذا فإن أصحاب الاتجاه الواحدي يخلصون إلى نتيجة مفادها أن اللغة والفكر كل موحد وأن العجز الذي توصف به اللغة فهو عجز في التفكير

وأن عدم التناسب بين القدرة على الفهم والقدرة على التبليغ يعود إلى عجز المتكلم عن إيجاد الألفاظ المناسبة للفكرة.

لكن الإنسان يشعر بعجز اللغة عن مسايرة الفكر؛ فالأدباء على الرغم من امتلاكهم لثروة لغوية كبيرة يعانون من مشكلة التعبير والتبليغ، كما يشعر الإنسان أيضاً بخطورة اللغة على الفكر أحياناً مثلما في حالة سوء التفاهم.

لا فكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر:

لقد حاول الكثير من الفلاسفة من خلال آراءهم التوفيق بين الفكر واللغة، فلا فكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر، وقد عبر عن هذا التلاحم بين اللغة والفكر" ميرلوبونتى" بقوله:

"إنّ الفكر لا يوجد خارج الكلمات"

بينما يقول دولاكروا: "اللغة تصنع الفكر والفكر يصنع اللغة" وهكذا يبقى على الإنسان الاعتناء بلغته وتطويرها حتى تتمكن من مواكبة الفكر واللحاق به؛ فاللغة السليمة تعبر بصدق عن الفكر

الإسقاط:

هو حيلة من الحيل الدفاعية، يلجأ إليها الفرد للتخلص من تأثير التوتر الناشئ في داخله، وهو عملية نقل، يدرك الفرد خلالها دوافعه وعيوبه وأخطاءه، وصفاته المعيبة في الغير بقصد وقاية نفسه من القلق الذي ينشأ من إدراكها في نفسه، حيث ينكر وجود النواقص في نفسه وقد ظهرت كلمة إسقاط لأول مرة في علم النفس عام **1894**، عندما كتب فرويد مقالةً له عن عصاب القلق، ومنذ ذلك الحين اتسع استخدامها ليشمل العديد من ألوان السلوك. هناك الكثير من البشر تداهمه نوبة انفعال شديد سببها ردود أفعال غير مسيطر عليها تحتقن في النفس لحين من الزمن، وانفجرت كتلة واحدة أمام أقرب الناس مشحوناً بانفعالات سببها له شخصٌ ما، وتلقى منه التعنيف أو الكلمات الجارحة أو التوبيخ، وظلت هذه الانفعالات تشحن في داخله لحين وصوله إلى بيته أو إلى عيادة العلاج، حيث ينفجر ويسقط مشاعر التعنيف والاحتقان الشديدة بوجه الناس، وهو النصر الأضعف في دائرة حياته، وهكذا نجد أن هذه الآلية الدفاعية «الميكانزم» لها أثرها في حياتنا وهي حيلة دفاعية، هذا ما يقوله الدكتور كريم سهر، استشاري الصحة النفسية والباراسيكولوجي، رئيس المعهد الكندي للعلوم الصحية بتورنتو، وهو سيناتور ووزير مفوض في البرلمان العالمي للأمن

والسلام، نائب الرئيس والمسجل العام بجامعة وستن ريزيرف بفانكوفر، وعميد دراسات العلوم الصحية في الشرق الأوسط، كلية لندن للدراسات العليا بالمملكة المتحدة، حيث أصدر عدة كتب منها كتاب هندسة المشاعر الإنسانية، وكتاب أجمل لحظات فشلي. آلية نفسية شائعة يبدأ الدكتور كريم سهر حديثه عن الإسقاط النفسي ويبدأ بقصة امرأة العزيز، حيث يعرف الإسقاط، ويعطي بعض المخارج للتخلص من هذه الحالة ويقول: ما فعلته امرأة عزيز مصر مع يوسف عليه السلام حين راودته عن نفسه، لما رأت زوجها عند الباب قذفت يوسف عليه السلام بدائها، وانسلت من قبيح صنيعها، مع استنكار وتحريض على معاقبة يوسف عليه السلام، إذاً الإسقاط آلية نفسية شائعة يعزو الشخص بوساطتها أو عن طريقها للآخرين، أحاسيس وعواطف ومشاعر يكون قد كبتها بداخله، ويضيف سهر في نفس السياق: نلاحظ أن هناك العديد من الأمثلة في حياتنا اليومية ونعايشها وندرك من خلالها سلوك الآخرين، ومن أمثلة ذلك أن الرجل الذي يخون زوجته كثيراً ما يتهم زوجته بالخيانة، ويشك فيها كثيراً أو الزوجة الخائنة التي دأبت على كبت ميولها إلى اقتراف الزنا، تصبح على درجة مبالغ فيها من الغيرة بحيث تتهم زوجها بالخيانة، ويمكن أن تحدث أوهام الاضطهاد من خلال الشعور بالذنب الذي يحمل الشخص على تخيل الآخرين وكأنهم يتكلمون عنه ويلقون بالاتهامات عليه. ويضيف سهر: يشير الإسقاط أولاً إلى حيلة لا شعورية من حيل دفاع الأنا

بمقتضاها ينسب الشخص إلى غيره ميولاً وأفكاراً مستمدة من خبرته الذاتية يرفض الاعتراف بها لما تسببه من ألم وما تثيره من مشاعر الذنب، فالإسقاط بمثابة وسيلة للكبت، أي أسلوب لاستبعاد العناصر النفسية المؤلمة عن حيز الشعور، إن العناصر التي يتناولها الإسقاط يدركها الشخص ثانية بوصفها موضوعات خارجية منقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الصادرة عنها أصلاً، فالإدراك الداخلي يلغى ويصل مضمونه إلى الشعور عوضاً عنه في شكل إدراك صادر عن الخارج، بعد أن يكون قد لحقه بعض التشويه. إسقاط المشاعر عملية هجومية يتساءل "سهر" عن إسقاط المشاعر ويقول: هل إسقاط المشاعر تعيد التوازن إلى النفس، أم تكشف أسراراً وخفايا وحقيقة الشخصية، فالفرد الذي يخاف من نزعاته العدوانية والجنسية يصيبه شيئاً من التخفيف من قلقه حين ينسب هذه النزعات العدوانية والجنسية إلى غيره من الناس، ولا شعورياً يقول إنهم هم الذين يميلون إلى العدوان وهم الذين يفكرون بالاعتداء على الناس لا أنا، كما يعتقد، وهي حيلة دفاعية تقلل من القلق الناتج من مواجهة سمات شخصية مهددة، وتظهر هنا مرة أخرى آلية القمع أو الكبت، إن الأفراد العدوانيين الذين لا يدركون مدى شرههم يلاحظون ذلك في الآخرين، إن آلية الإسقاط هي آلية نفسية لا شعورية بحتة، وهي عملية هجوم لاشعوري يحمي الفرد بها نفسه بإلصاق عيوبه ونقائصه ورغباته المحرمة أو المستهجنة بالآخرين، كما أنها عملية لوم الآخرين على ما فشل هو فيه بسبب ما يضعونه أمامه من

عقبات وما يوقعونه فيه من زلات أو أخطاء، فيقول الشخص في لا شعوره: أنا أكره شخصاً ما، ولكني أقول هو يكرهني، هنا أريد أن أخفف من إثمي ومشاعري الدفينة تجاه ذلك الشخص، إذا ما قارنا الإسقاط بالتبرير، وكلاهما حيل دفاعية يلجأ إليها الفرد فإننا نجد أن الإسقاط عملية دفاع ضد الآخرين في الخارج، أما التبرير فهي عملية كذب على النفس، إن الإسقاط إذا كان قائماً على شعور عنيف بالذنب أدى إلى حالة اضطراب البارانويا أو ما يصاحبه من هذيان وهلوسة، ففي المرض العقلي «الذهان» يسقط المريض رغباته ومخاوفه على العالم الخارجي، وفي الهذاءات يعتقد المريض أن جميع الناس ضده ويريدون أن ينالوا منه، وهي مشاعر إسقاطية لا أساس لها في الواقع. الإسقاط تبرير للفشل يفسر كريم سهر الإسقاط النفسي بأنه حالة من حالات الفشل، ويعطي أمثلة على ذلك بالقول: الإسقاط هي حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس حتى يُبرئ نفسه ويبعد الشبهات عنها، فالكاذب يتهم معظم الناس بالكذب، والإسقاط هو إعطاء الآخرين صفات سلبية توجد في الشخص الذي يتقول عليهم، والإسقاط قد يؤدي إلى عدوان مادي في صورة جرائم، فمثلاً الموظف الذي يحمل مشاعر عدوانية نحو رئيسه قد يسقط هذه المشاعر عليه، ويتصور أن رئيسه يكيد له ويتربص به لكي يؤذيه، ومن ثم يبادر بالهجوم والاعتداء عليه، وهكذا تدفع هذه الحيلة المضطربين إلى نسبة ما في أنفسهم إلى الناس والتعامل معهم على

هذا الأساس، ومن ثم يقومون بارتكاب جرائم فعلية. ويضيف سهر: الإسقاط هي العملية التي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصفات والمشاعر والرغبات، وحتى بعض الموضوعات التي يتنكر لها أو يرفضها في نفسه، كي يلصقها في الآخر، سواء أكان هذا الآخر شخصاً أم شيئاً، فالشخص الذي يقوم بهذه الحيلة النفسية يرمي علته من عيب أو خطأ أو تقصير أو رغبات غير مقبولة أو مخاوف أو غير ذلك، فيسقطها على غيره من الناس أو الأشياء، ويتملص من تبعات الاعتراف بالخلل الذي فيه شعور بالنقص أو الخزي أو المهانة أو القلق أو التوتر والفضيحة. وقد يفسر أعمال الآخرين وتصرفاتهم بحسب ما يجري في نفسه من سوء ظن وريبة في غيره فيلصق بهم سوء ظنه ويتهم نياتهم ويلتمس عثراتهم ويفتش عن عوراتهم، وأحياناً يبالغ في تضخيم صورة العيوب التي يسقطها على غيره فيصورها صورة مكبرة دقيقة التفاصيل مملوءة بالتنفير والاستهجان وتحريض الآخرين على كرهها واستنكارها، فهو يسعى بهذا الإسقاط النفسي إلى تبرئة نفسه من العيب الذي يقلل من شأنها وينقص من قدرها، بينها وبين ذاتها وأمام الناس، كما يوجد الإسقاط عذراً للشخص كي يفرغ غيظه على غيره ولا سيما الأشخاص الذين يواجهونه بعيوبه حيث يبادر بقوة طرد إسقاطية شديدة تلقي بتلك المواجهات على مصدرها الذي جاءت منه، وعملية الإسقاط النفسي هذه تشبه إلى حد كبير عمل الفانوس التعليمي (البروجكتر) الذي توضع عليه الشفافيات البلاستيكية وما فيها من

معلومات فيقوم بتسليط الضوء عليها وتكبيرها وإسقاطها على الحائط المقابل، وكأن الصورة تنتمي إلى الحائط بينما هي في هذا الجهاز الذي يخرج ما بداخله يسقطه على غيره، فكم في الناس اليوم من فانوس وفانوس ما بين مقلٍ ومستكثر من الإسقاط النفسي. فاقدو الثقة المكثرون من الإسقاطات هم ضعاف الثقة في النفس، الثقة الحقيقة الداخلية لا الثقة الخارجية المصطنعة، وإن أوهموا من حولهم أنهم واثقون بأنفسهم، ويكثر الإسقاط في هؤلاء كلما ضعفت المعنويات وزاد الإحباط، المتصفون بالاعتداد بالرأي والأنفة الزائدة، الميالون للجدل والمراء والعناد والتحدي والخصومة، المتصفون بالشك والريبة والحذر الزائد من الناس. أما الإسقاط اليسير وغير المتكرر فقلما يسلم منه أحد، وليست له دلالة على شخصية معينة وأكثر ما يكون في حالات خيبة الأمل، وفي الإسقاط على الزمن والظروف المحيطة بالشخص، يتبين لنا إذاً أن الإسقاط النفسي هو مجموعة من التبريرات والأعذار التي تُلقى من الشخص المريض على من حوله سواء كانوا أشخاصاً بعينهم أو على أحوالٍ وظروفٍ تجري من حوله، ومقصده من إلقاء هذه التبريرات والأعذار هو التهرب من المسؤولية والفشل أو الخلل الذي وقع به في ناحية من نواحي حياته. من خلال يوميات مهنتك قد تكون ممن يقع في هذه الآفة، وقد تكون ممن يتعرض لخطرها وتصبح كبش الفداء. فلمعرفة الإنسان الذي يعاني من الإسقاطات النفسية كل ما عليك فعله هو النظرة بتأمل في جزئيات تصرفاته لتكتشف فيها تناقضات

ليست بالسهلة، أضف إلى هذا أنه يحذر بشكل واضح من سلوكيات يقع فيها هو نفسه. الطفل الجبان دائماً ما تراه يتكلم عن جبن زملائه، كل هذا ليحاول إسقاط حالته على الآخرين، ويكون الأمر في النهاية كلنا في الهواء سواء. عثرات نفسية ليس عيباً أن يكون الإنسان ضعيفاً في سلوك من سلوكياته، قد يقع في معصية، وربما يكون فيه خصلة سيئة كالجبن والكذب، العيب هو أن يسقطها على غيره ظلماً وعدواناً، ويظهر نفسه بالضحية ذات الأخلاق الحميدة. عيوب الإنسان إذا كانت تضره دون سواه فالأمر هين، المشكلة أن ينقل الإنسان أزماته ومشاكله التي يعانيها وظروفه النفسية وحالة الاضطراب النفسي التي يعانيها إلى الخارج، وبخاصة إلى المحيط الذي يشعر بأنه يخنقه، بينما هو لا يدري أنه يحاول بنفسه خنق كل من حوله لاعتقاده أن إسقاط أمراضه النفسية أو فشله أو سلوكياته السيئة على غيره يفتح له آفاق الراحة النفسية. فالإسقاط في الاختبار النفسي يختلف عنه في التحليل النفسي أو في غيره من المدارس. فما هو إلا مجرد أداة لاستشفاف الشخصية، وليس مفهوماً متكاملاً كما في التحليل النفسي لسيكوباتى الشرير أخطر صورة إجرامية:

في كثير من الأحيان تبتلى الأسر والمجتمعات بأفراد لا يلتزمون بالأعراف والقيم السائدة سواء خلقياً ودينياً واجتماعياً، ويخرجون على التقاليد الإنسانية المقبولة وكأنها لا تعنيهم، فلا تجتذب اهتمامهم ولا يراعون

مصالح الآخرين أو حقوقهم، وإنما هم مبالون بالاستعانة بها لتحقيق مصالحهم مع إيجاد مبررات تافهة أو سخيفة لذلك، فنجدهم كاذبين في حديثهم مخالفين في تعاملهم لا تحكم تصرفاتهم أي معايير أخلاقية أو ضمير إنساني حر.

وقد أطلق البعض على هذه التصرفات "الشذوذ الخلقي"، كما سماه آخرون "عصاب أخلاقي" ووصفه آخرون "بالمرض النفسي الاجتماعي" وتعددت الأسماء والصفات بتعدد أعراض المرض الموصوف وآثاره.. إنه الشخصية السيكوباتية.

ويُعرّف اضطراب الشخصية السيكوباتية **Psychopathic Personality disorder** على أنه اضطراب شخصية مرضية يتألف من مجموعة من السمات الشخصية الشاذة، والمظاهرة الاجتماعية المضطربة، ونعرض فيما يلي لكل منها بشيء من الإيجاز...

سمات الشخصية السيكوباتية:

يوجد خمس سمات أساسية للشخصية السيكوباتية، لا تمثل مجموع سمات هذه الشخصية المضطربة، وإنما تمثل الخطوط العريضة لسمات مرضية عديدة، وهي:

1-أناني، ولا يُعرف سبب أنانيته.

2-عاجز عن تكوين علاقات دائمة من المودة مع غيره من الناس.

3-سريع الاندفاع والاستثارة.

4-قليل –أو عديم- الشعور بالذنب أو الإثم.

5-يسبب في الغالب معاناة لمن حوله في الأسرة أو العمل.

ولعلّ هذا التوسع في مفهوم السيكوباتية هو ما أدى إلى غموض المصطلح لدرجة أنه قد تمت الإشارة إلى فئة السيكوباتية على أنها سلة مهملات التشخيص عند مواجهة حالات تبدي فيها أعراض كلها ضد مجتمعية، ولكن بعد تطور الدراسات في ميدان السيكوباتية أمكن تحديد هذا المفهوم وتخصصية لفئة مميزة عن فئات الانحرافات السلوكية الأخرى. في وصف السيكوباتيين..

يتصف السيكوباتي عموماً بالاندفاعية، وسرعة الاستثارة، ومعاداة النظم الاجتماعية، وكثرة المشاغبة والتقلب المزاجي، وضعف القدرة على التركيز

وعدم المثابرة، والخضوع لمبدأ اللذة السريعة، والإشباع المباشر للرغبات، والعجز عن الاستفادة من الخبرات السابقة، وعن التوافق مع المجتمع لرعونته، وسلوكه الفج ورغبته في الغش والكذب وارتكاب الجرائم دون شعور بالخجل أو الندم، وقد يدمن السيكوباتي شرب الخمر، وتعاطي المخدرات أو الانحرافات الجنسية، ويعجز عن تحمل المسؤولية إلا في إثارة الشغب، وتهبط همته بسرعة ويفشل في العمل لعدم استقراره النفسي فيفقد هو يعيش في بطالة ولا تجدي في علاجه أساليب اللين ولا الشدة. والمصابون بالسيكوباتية لم يفتقدوا الصلة بالواقع، وإنما أصيبوا بمظاهر انحراف أو شذوذ في حياتهم العاطفية فلم يعد الواحد منهم يدرك الدلالة الانفعالية لكل ما يمر به من خبرات.

وقد يبدو سلوك السيكوباتي –أحياناً– سلوكاً عادياً سوياً في الظاهر، ولكنه في الواقع ينطوي على عجزٍ تامٍ من إدراك العنصر الانفعالي للمواقف المختلفة التي يمر بها، وتبعاً لذلك فإن السيكوباتي لا يستفيد مما يتعرض له من أحداث فهو لا يكتسب منها أي خبرة يمكن أن تسمح له بتعديل نشاطه أو توجيهه على النحو الذي يضمن له تحقيق أهدافه الذاتية.

مظاهر الشخصية السيكوباتية:

تتوفر في الشخصية المضادة للمجتمع عدة مظاهر إكلينيكية (عيادية) تندرج جميعها تحت أربعة مظاهر أساسية، وهي:

1-استمرار مدة معاناة من حوله منه.

2-عدم وجود مرض عقلي أو تخلف عقلي.

3-اتسام سلوكه بالعنف والتعدي وعدم تحمل المسؤولية.

4-اضطرار من حوله لاتخاذ إجراءات معينة ضده لمواجهته.

ولعله من الصعب حصر نمط الشخصية السيكوباتية في صورة سلوكية واحدة أو تصور واحد معين، فهي تتلون وتتغير تبعاً للموقف، ولذلك فقد تعارف الناس على أنماط هذه الشخصية الثلاثة على أنه عدواني وعدائي ومتكيف، وسنعرض لهذه الأنماط بالتفصيل.

أنماط الشخصية السيكوباتية:

السمة السائدة لهذه الشخصية -كما أسلفنا- هي عدم النضج الانفعالي والعاطفي، وعدم التعلم من تجارب الحياة وخبراتها، وعند الأخذ بأنماطها المتعددة نجد أنها تشمل:

(1) النمط العدائي (اللا أخلاقي):

وفي هذا النمط يتصف الشخص بالعدائية وهي العدوان غير الصريح أو الظاهر، فتجده يسعى لإيذاء الآخرين من حوله ويحرص على الظهور بمظهر الإنسان الوديع في البداية، ثم يعبر عن سوء خلقه عند تحقيق ما يريد. ولهذا النمط بعض الخصال المميزة له فتجد الشخص دائم الكذب، ولا يصدقك الحديث إلا قليلاً، حريص على الغش، متحايل، متطاول على الآخرين.. وغيرها من الصفات اللاأخلاقية.

وينبع هذا السلوك السيكوباتي عند هذا النمط من السيكوباتيين من عدم تقدير هذا الشخص لنفسه، وشعوره بالدونية بين الناس، مما يشعره دوماً بالإحباط الذي يشعر به عند فشله في إقامة علاقات متوازنة قائمة على الاحترام والتقدير، فتجده حاقداً حاسداً كذاباً فتاناً متصنتاً بين الناس متلصصاً عليهم.

(2) النمط العدواني (الضد مجتمعي الصريح):

يعد هذا النمط من أخطر أنماط الشخصية السيكوباتية، حيث يمثل المعاناة الأكبر للأسرة والمجتمع، لما يصدر عنه من سلوك فعلي صريح إزاء المواقف المختلفة، ويطلق على هذا النمط سلوك العنف والتعدي، فهو يتسم بالقسوة في التعامل والغلظة في الأسلوب وعدم الندم على ما يفعل وتبرير الأخطاء لصالحة دوماً.

والعنف السيكوباتي في هذه الحالة لا ينحصر في تعديه على المجتمع بالكلام أو التهور في المعاملة، بل يتعداه إلى درجات متفاوتة من العنف الفعلي، بحيث يشمل الأفعال والنساء وربما من أفراد أسرته.
وهنا نجد أن معظم حالات العنف قد تأتي بدون تدبير مسبق منه، ذلك لأنها تأتي تحقيقاً لرغبة ملحة فيه، وهي رغبة العدوان.
لذلك تجد أن جميع ردود أفعاله العنيفة صادرة ضد المجتمع سواء كأفعال أو ردود أفعال، ويكون عنف مادي في الغالب.

....

(3) النمط المتكيف (الإبداعي):

هذا النمط من السيكوباتيين يكون قادراً على التكيف مع المواقف المختلفة والأشخاص المختلفة، فتجده ذكي لدرجة الإبداع في تحقيق مصلحته ومنفعته دون أدنى مسؤولية تجاه الغير، فيسعى لكسب الآخرين وتحقيق منافع منهم دون أن يقع في مشاكل معهم.

وقد أضفى بعض العوام من الناس صفات صحيحة على هذا النمط مثل أنه ماكر، لئيم، حريص، ذكي، غير عنيف، ولكنه يبدو للجميع عدم صدق نواياه في ادعاء الخير.

ورغم أن السيكوباتي لا يعاني أي خبل أو هلوسة أو هذاء، إلا أنّ اضطرابه لا يقل خطورة عن غيره من أنواع الاضطراب الأخرى، لأنه اضطراب يمس أعماق الشخصية وتتولد عنه جرائم تهتز لها أركان المجتمع. ومن ذلك يتضح أن السيكوباتيين يشبهون الجانحين في ارتكابهم لبعض الأفعال المعادية للمجتمع و التي يعاقب عليها القانون، ولكنهم يختلفون عنهم في نواحي كثيرة، فالجانح عادة ما يكون جناحه نتاج ظروف تنشئة سيئة، ويعتبر جناحه غرض لهذه الظروف السيئة، فإذا تغيرت هذه الظروف تحسنت اتجاهاته نحو نفسه ونحو المجتمع.

كما أن الجانحون يستجيبون للعلاج الاجتماعي والنفسي والتربوي، أما السيكوباتي فهو غير معروف الأسباب التي أدت إلى سلوكه المضاد للمجتمع فيسلك أفعالاً لا اجتماعية في سن مبكرة، وتستمر معه مدى الحياة لأنه لا يستجيب لأي نوع من العلاج أو حتى العقاب.

أسباب تكوين ونمو الشخصية السيكوباتية:

بشكل عام السلوك الإنساني = الاستعداد الوراثي + الإعداد البيئي + الدافعية النفسية، وعليه فأي من الصفات المرضية تكون راجعة إلى مكون ما من هذه الثلاثة.

ولذلك لا يمكن أن يكون السبب في تكوين هذه الشخصية واحداً في جميع الحالات، ولكن هناك فروق بين الأفراد السيكوباتيين حتى في طريق استجاباتهم وفي مظهر الشخصية السيكوباتية ذاتها.

وبشكل عام فإن السيكوباتي فرد ولد وعنده نقص بطريقة ما، أو أنه يعرض للنمو الناقص لأسباب وراثية، حيث يظهر ذلك على الأطفال الذين تبدو عليهم مظاهر الانحراف وعدم التوافق، أي أن احتمال نشأة الاضطراب السيكوباتي يرجع إلى عوامل استعدادية وراثية.

كما تلعب فترة الطفولة وما تحتويه من تراكيب للعادات الأساسية وما يؤثر في الطفل من مؤثرات اجتماعية قد تساعد بطريقة واضحة في بناء الشخصية السيكوباتية ونموها.

وعلى أية حال فليس بعيد أن يكون الانحراف السيكوباتي واحداً من هذه المركبات السلوكية الوراثية أو المكتسبة المتعلمة، لأن الإنسان يستطيع أن يتعلم في طفولته كيف يكون سلوكه مناهضاً للمجتمع أنانياً لا يعبأ

بمشاعر الآخرين، كما قد يتعلم كيف يكون سلوكه اجتماعياً يهتم فيه اهتماماً عادياً بعواطف الآخرين ومشاعرهم.

خصائص الشخصية السيكوباتية:

هناك بعض الملامح والخصائص الأساسية للشخصية السيكوباتية، نجملها في الآتي:

1- فقدان الضمير أو عدم كفايته:

يوجد مظهران متصلان بمفهوم الضمير المختل، الأول هو عدم قدرة السيكوباتي على تطبيق الأحكام الخلقية السائدة في مجتمعه على سلوكه، والمظهر الثاني هو عدم الشعور بالذنب، نظراً لأن الشعور بالذنب عنصر هام في تكوين الضمير، إذ يشعر الشخص السوي بالتعاسة وتأنيب النفس، أما السيكوباتي فيستمر في انحرافه دون أي شعور بالذنب وإن كان في بعض الأحيان يحاول – لفظياً فقط – الاعتذار عن تصرفاته وإظهار الندم الخادع عليها.

2- عدم النضج الانفعالي والتركيز حول الذات:

ينمو السيكوباتي جسمياً وعقلياً، غير أنه قد لا ينمو انفعالياً ويظل تركيزه في ذاته كالطفل إذ لا يهمه سوى نفسه وإشباع رغباته وحاجاته إشباعاً مباشراً، ولذا يشعر بالإحباط الشديد إذا ما وقف عائق دون تحقيق هذه الأهداف للحصول على ما يريد دون ضمير أو شعور بالخوف أو الذنب. والسيكوباتي يفقد القدرة عن السيطرة على نفسه إذ أن الفرد السوي

يتمكن من ضبط نفسه والسيطرة عليها، إضافة إلى عدم تعلمه من خبراته السابقة ولا يُجدى معه الثواب والعقاب.

3 – عدم وجود خطة طويلة الأجل للمستقبل:

يعيش السيكوباتي عادة في حاضره وشعاره الدائم هو هنا والآن، فهو عاجز عن التطلع إلى المستقبل أو التخطيط له ما دام يعيش في حاضره، فالحياة بالنسبة له عبارة عن سلسلة من الأفعال الاندفاعية لا تخدم خطة المستقبل أو التوصل إلى أهداف مرغوبة فيها استقرار انفعالي واجتماعي، مشاكساً لزملائه ورؤسائه ومن يتعامل معهم والتجائه الدائم إلى الكذب والغش والتحايل وعدم تقدير المسؤولية يحول بينه وبين الاستقرار في العمل.

4- العجز عن الحب والارتباط العاطفي:

ويظهر ذلك في عجز السيكوباتي عن إقامة روابط عاطفية أو علاقات متبادلة مع الآخرين، وذلك لعجزه عن الإحساس بمشاعرهم، ومن أهم ما يظهره تجاهه الغير، وعدم السادية الجريمة في ذاتها.

الشخص السادي:

تتضمن السادية الحصول على السعادة من خلال الآخرين الذين يعانون من عدم الراحة أو الألم، ولمعرفة ما سمات الشخصية السادية، يجب الإشارة إلى أن الشخصية السادية لا تعني كيف ينظر الشخص إلى الخصم بأسلوب أو طريقة لا يتعرض بها إلى الأفراد، بل تعني أيضاً الاستمتاع بارتكاب أعمال سادية، إذ يميل الأفراد الذين يمتلكون شخصيات سادية إلى إظهار التنمر والسلوك العدواني المتكرر والقاسي، ويمكن أن تشمل السادية أيضاً استخدام القسوة العاطفية أيضاً، والتلاعب عمداً بالآخرين من خلال استخدام الخوف، والانشغال بالعنف.

[1] اضطراب الشخصية السادية اضطراب الشخصية السادية هو مرض نفسي يتميز بتجربة السعادة، والمصحوبة عادة بالشعور بالإثارة الجنسية، عن طريق تحريض الألم على شخص ما أو إهانته بطريقة ما، هذا المرض النفسي مثير للجدل إلى حدٍ ما، وقد تم وصفه بشكله الخاص كمرض أو اضطراب منفصل في التشخيص الأمريكي الثالث للاضطرابات النفسية DSM-III-R، ولكن تمت إزالته من الإصدارات الأحدث DSM-IV و DSM-IV-TR و DSM-5

[2] ومن أهم مشكلات معرفة ما سمات الشخصية السادية وتحديد أبعادها، هو أن هناك سمات مشتركة عالية بين هذا الاضطراب وبين

اضطرابات الشخصية الأخرى، ومن الاضطرابات ذات السمات المشتركة هنالك اضطراب الشخصية التجنبية، واضطراب الشخصية السلبية العدوانية، واضطراب الشخصية الوسواسية، بالإضافة إلى اضطراب الشخصية الحدية، إذ تشترك هذه الاضطرابات مع اضطراب الشخصية السادية في العديد من الأعراض ذات الصلة بالسلوكيات بالسادية، وقد يكون هذا السبب جزءًا من أسباب إزالته من DSMكمرض نفسي معترف به طبيًا.

[3] السادية لا تتعلق دائمًا بالجنس ان مصطلح الشخصية السادية وجد في أواخر القرن التاسع عشر، وكان يشير في الأصل إلى المتعة الجنسية المستمدة من إلحاق الألم والمعاناة بالآخرين، لكن ومع مرور الوقت، تم توسيع هذا المصطلح ليشمل التمتع غير الجنسي المستمد من الأفعال السادية، وفي وصفه لما سمات الشخصية السادية أشار سيغموند فرويد أن السادية تشمل اضطرابين منفصلين، فالسادية الجنسية والسلوك السادي العام، وقد دعمت الدراسات اللاحقة هذا التمييز، مشيرة إلى أن الساديين الجنسيين لا يشاركون عادة في سلوك سادي غير جنسي مع شركائهم أو غيرهم، وتعتبر السادية الجنسية في كل من الإصدارين DSM-III-R5 و DSM-IV6 بمثابة استعارة لفظية، إذ تتميز بتعرض الفرد لتأثير أوهام متكررة ومثيرة جنسيًا، تثير أو تحث الفرد على المشاركة في سلوك ينطوي على معاناة نفسية أو جسدية للآخرين.

[4] ما سمات الشخصية السادية توحي الأوصاف السريرية للشخصية السادية أن الاضطراب يتكون من سمات تمتد في المجالات السلوكية والشخصية والمعرفية والوجدانية، ولمعرفة ما سمات الشخصية السادية السلوكية يمكن الإشارة إلى أن الأفراد الساديون بامتلاكهم ضوابط سلوكية رديئة، ويتجلى ذلك في القدرة القيلة على تحمل الضغط النفسي، والتهييج السريع، وتحمل منخفض للإحباط، وطبيعة مسيطرة؛ ولمعرفة ما سمات الشخصية السادية من وجهة نظر العلاقات الشخصية، يُشار إلى أصحاب الشخصية السادية على أنهم أشخاص قاسون وعدوانيون ومتهورون، يفتقرون إلى التعاطف، ومتحجرو القلوب تجاه أولئك الذين يرون أنهم أقل شأنًا، تُعد طبيعتهم المعرفية جامدة ومعرضة للتعصب الاجتماعي، وهم مفتونون بالأسلحة والحرب والجرائم الشائنة أو مرتكبي الأعمال الوحشية؛ أما ما سمات الشخصية السادية مجتمعيًا، فيُعتقد أن الساديين في الأصل يبحثون عن مواقف اجتماعية تمكنهم من ممارسة حاجتهم للسيطرة على الآخرين ومعاقبتهم عقوبات قاسية أو إذلالهم، لهذا السبب، افترض البعض أن هناك ارتفاعًا في معدل انتشار السادية بين الأفراد الذين يعملون في أماكن مثل تطبيق القانون، والمرافق الإصلاحية والجيش والحكومة والنظام القضائي،

[5] بالإضافة إلى ذلك، أظهرت العديد من الدراسات اختلافًا جنسيًا مهمًا بين الذكور والإناث، إذ أشارت بعض الدراسات أن معظم الأفراد الذين

يعانون من اضطراب الشخصية السادية هم من الذكور، وهذا يتفق مع ما جاء في الأدب النظري والنتائج السريرية.

[6] التشخيص التفريقي لاضطراب الشخصية السادية ولمعرفة ما سمات الشخصية السادية يجب تحديد الخصائص التشخيصية لهذا الاضطراب، على النحو المحدد في DSM-III-R، فإن اضطراب الشخصية السادية يشترك في خصائص مشابهة للمعايير التشخيصية لاضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، ويكشف التشخيص الدقيق عن الاختلافات الرئيسة، حيث يُعرِّف DSM-III-R SPDبأنه نمط واسع الانتشار من السلوك القاسي والمهين والعدائي تجاه الآخرين، وهو موجه نحو أكثر من شخص ولا يخدم غرض الإثارة الجنسية فقط، وقد تم وصف ثمانية معايير ممكنة، مع وجود أربعة معايير أو أكثر مطلوبة للتشخيص، وهذه المعايير هي:

[7] أولًا: النمط المنتشر للسلوك القاسي والمهين والعدائي، والذي يبدأ في مرحلة البلوغ المبكر، كما يتضح من الحدوث المتكرر لما لا يقل عن أربعة مما يأتي: استخدام القسوة الجسدية أو العنف لغرض إثبات الهيمنة في العلاقة، وليس لتحقيق بعض الأهداف غير الشخصية، مثل ضرب شخص ما للهيمنة عليه. إذلال أو إهانة الناس بحضور الآخرين. معاملة أو تأديب شخص ما خاضع لسيطرته بقسوة غير معتادة، على سبيل المثال طفل أو طالب أو سجين أو مريض. التسلية أو الشعور بالسعادة بالمعاناة النفسية أو الجسدية للآخرين، بما في ذلك الحيوانات. الكذب بغرض إيذاء أو إلحاق

الألم بالآخرين فقط، وليس لتحقيق هدف آخر. حث الآخرين على القيام بما يريده عن طريق تخويفهم، أو حتى الإرهاب. تقييد استقلالية الأشخاص الذين تربطهم به علاقة وثيقة. الإعجاب بالعنف أو الأسلحة أو فنون الدفاع عن النفس أو الإصابة أو التعذيب.

ثانيًا: لا يتم توجيه السلوكيات المذكورة أعلاه نحو شخص واحد فقط كالزوجة أو الزوج أو أحد الأطفال، ولا يكون هذا السلوك لغرض الإثارة الجنسية فقط، كما في العلاقات الجنسية ذات الطبيعة السادية. الاختلافات مع اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع في المقابل، يُعرّف اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع بأنه نمط واسع الانتشار من عدم احترام حقوق الآخرين وانتهاكها، ويلاحظ أنه على الرغم من وجود العديد من معايير التشخيص المشتركة بين الاضطرابين، مثل خرق القوانين، والفشل في الالتزام بالمعايير الاجتماعية، والخداع، واستغلال الآخرين، والعنف، لكن الغرض من ارتكاب هذه الأفعال يختلف بين التشخيصين، ذلك لأن الأفراد الذين يعانون من اضطراب الشخصية السادية يرتكبون الأفعال بشكل أساسي للحصول على المتعة أو تحقيق الهيمنة والسيطرة، بينما يرتكب الأفراد الذين يعانون من اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع هذه الأفعال بشكل أساسي لكسب الربح أو بسبب طبيعتهم العدوانية باستعمال آليات بدائية للتغلب على الضغوطات .

بارانويا (جنون الارتياب):

البارانويا أو جنون الارتياب هو اضطراب نفسي عصبي يشعر به المريض دائماً أنه معرض للاضطهاد والتهديد، والشعور بالخطر والملاحقة من الآخرين، ويكون لدى المريض شكوك غير عقلانية، وعدم الثقة بالآخرين.

_ما هي أسباب بارانويا (جنون الارتياب)؟

السبب وراء حدوث البارانويا غير معروف، لكن يوجد عوامل تحفز الإصابة بالبارانويا، ومنها ما يلي:

1-أمراض نفسية أخرى مثل انفصام الشخصية.

2-تعاطي المخدرات، إدمان الميثامفيتامين والأمفيتامين والكوكايين، إذ تؤثّر جميعها على النّاقلات العصبية الموجودة في الدماغ، وتغير من كيمياء الدماغ، وتجلب أفكاراً وسلوكيات مرتبطة بجنون العظمة. للمزيد: أثر الحشيش على الدماغ.

3-الضغط العصبي، وجدت الدراسات أن مرض البارنويا أكثر شيوعاً لدى الأفراد الذين تعرضوا للضغط العصبي الشديد والمستمر، ولكن الكيفية غير واضحة.

4-الخرف

5-التعرض لصدمة خلال الحياة تؤثر على الشعور وطريقة التفكير، مثل سوء المعاملة خلال الطفولة.

_ما هي أعراض بارانويا (جنون الارتياب)؟

مرضى البارانويا لا يشعرون بأنهم غير طبيعيين، فهم مدركون تماماً أنهم ملاحقون أو معرضون للتهديد أو الاضطهاد من قبل الآخرين. كما تختلف أعراض البارنويا من شخص لآخر من حيث الشدة والنوع، ومن أهم الأعراض التي قد تظهر لدى مرضى البارانويا:

1-انعدام الثقة بالأشخاص المحيطين به.

2-الشعور بالضغط النفسي والقلق المستمر بسبب المعتقدات التي لديه تجاه الآخرين.

3-الشعور أن الآخرين غير مؤمنين به ويسيئون فهمه.

4-شعور بالإيذاء والتهديد والاضطهاد على الرغم من عدم وجود خطر حوله.

5-الهلوسة

6-الشعور أن الآخرين يتآمرون ضده ويحاولون إلحاق الأذى الجسدي والعاطفي به.

7-الخوف المبالغ أن شيئاً سيئاً قد يحدث.

8-الاعتقاد أن النّاس يتكلمون عنه بشكلٍ سيّئ من وراء ظهره.

9-عدم تقبل النقد بأشكاله المختلفة.

10-العدائية والعدوانية المستمرة.

11-عدم القدرة على النسيان والمسامحة.

12-صعوبة في تكوين العلاقات الاجتماعية.

_كيف يتم تشخيص بارانويا (جنون الارتياب)؟

سيقوم الطبيب بإجراء فحوصات طبية كاملة وأخذ تاريخ طبي للمريض لاستبعاد أي مشكلة صحية قد يعاني منها، كالخرف أو أي أثر جانبي من أي دواء يستخدمه الشخص المصاب.

إذا شخص مرض البارانويا فإنه يحول إلى أخصائي الأمراض النفسية، لتحديد الحالة العقلية للمريض وإجراء فحوصات واختبارات نفسية سريرية، وقد يعاني المريض المصاب بجنون العظمة أيضاً من اضطراب ثنائي القطب، القلق، أو الاكتئاب.

_ما هو علاج بارانويا (جنون الارتياب)؟

جنون الارتياب لا شفاء منه والأدوية يتم استخدامها لإدارة المرض والتحكم بأعراضه ومنعه من التدهور، ويعتمد علاج مرض البارانويا على السبب الكامن وراء المرض وعلى شدة الأعراض التي يعاني منها، ويشمل العلاج ما يلي:

العلاج النفسي والعلاج السلوكي المعرفي، يهدف هذا العلاج إلى تعزيز ثقة المريض بنفسه وبمن حوله، وجعل المريض يتقبل الضعف الذي يعاني منه،

وزيادة احترام المريض لذاته، وجعل المريض يتحكّم بمشاعره ويعبر عنها بطريقة إيجابية، وتحسين مهارات التواصل الاجتماعي لدى المريض.

أدوية مضادة للقلق، لعلاج الاضطرابات الشخصية إذا كان يعاني المريض من القلق والخوف. ويمكن استخدام الأدوية المضادة للذهان اللانمطية تحت إشراف الطبيب المختص مثل: أولانزابين، وريسبيريدون، وغيرها.

إذا كان المريض يعاني من اضطراب انفصام الشخصية فإنّه يحتاج في مرحلة العلاج الأولي إلى أدوية مضادة للذهان، وقد يحتاج لاحقاً إلى أدوية مضادّة للقلق وأدوية مضادة للاكتئاب، وقد يرفض المريض في معظم الحالات تناول هذه الأدوية لاعتقاده أن هذه الأدوية ستلحق به الأذى.

إذا كان مرض البارنويا نتيجة تعاطي المخدرات أو إدمان الكحول، فإنه سيتلقى علاج داعم ويشارك في برامج العلاج من التعاطي لحين الإقلاع عن إدمان المخدّرات والكحول.

تعلم مهارات التكيف مثل العلاج بالاسترخاء، وتقنيات التقليل من القلق والخوف، وتعديل السلوك.

تعلم مهارات التكيف مثل العلاج بالاسترخاء، وتقنيات التقليل من القلق والخوف، وتعديل السلوك.

قد تستدعي الحالات الشديدة والخطيرة إلى دخول المستشفى حتّى تستقر الحالة وتخف الأعراض التي يعاني منها المريض.

مرض البارانويا كغيره من الأمراض يعتمد على مدى قابلية المريض الالتزام بالعلاج، فالمريض الذي يتقبل العلاج ويلتزم بأوامر الطبيب في أخذه يمكنه أن يحتفظ بوظيفته ويحظى بحياة اجتماعية سليمة تمنع من تطور المرض.

_الاضطرابات المرتبطة بمرض البارانويا

اضطرابات الشخصية، يعتبر اضطراب الشخصية أكثر اعتدالاً، ويكون مرتبطاً بالمشاعر والتّصرّفات والأفكار التي تجعل المريض يشعر بالاضطهاد والتّهديد وعدم الثقة بالآخرين. تقل شدة هذا الاضطراب كثيراً مع التقدم بالعم، ومن الممكن أن يتعافى المريض عندما يصبح في الخمسينات من عمره.

اضطراب الوهم، يكون لدى المرضى الذين يعانون من هذا الاضطراب وهم واعتقاد واحد وثابت دون وجود علامات اختلال عقلية على سبيل المثال: الشخص الذي يعاني من وهم الاضطهاد يعتقد أن الآخرين يتجسسون عليه وسيلحقون الأذى به، أو يعتقد الشخص أنه على علاقة مع نجم سينمائي لم يلتقِ به من قبل، أو أن يعتقد الشخص أنه مصاب بمرض خطير على الرغم من نفي الأطباء لذلك.

انفصام الشخصية، هو الاضطراب الأخطر والأكثر شدة، ويتحسّن به المريض بشكل غير ملحوظ. ويعتبر هذا الاضطراب أنّه مرتبط بمرض الذّهان، إذ يعاني المريض من الأوهام الغريبة والهلوسة.

_كيف عرّفه؟!

أكتب إليك في منتصف ليلي الذي اعتدت أن أقطعه بحثاً عنك وبحثاً عن إجاباتي؛ تلومني على قسوتي وكيف لا أقسو عليك بعد ما أدميت قلبي المسكين ببعدك وهجرك؛ كيف يستطيع قلبي تحمل كل هذا؟

كيف يستطيع أن يتنفس بعيد عنك؟ ماذا أقول له دفاعاً عنك؟

لطالما بررت.....

ودافعت..... واختلقت الأعذار..... لكنه أصبح لا يصدقني ويتهمني بالاحتيال عليه..... كيف أبرر اختفاءك وانقطاعك عن قلب أصبح لا يتنفس إلا أنفاسك؟

ما المبررات الموجودة في هذا العالم لتكفيه؟

قل لي كيف يعيش دون سماع صوتك؟

كيف يهدأ دون رؤيتك؟

كيف يتوقف عن البحث عن رسائلك لربما يجد شيئاً يهدئ روعه؟

كيف يتخطى هذه الأسئلة التي تنهشه كل دقيقة؟

كيف يضع النظريات لكل الاحتمالات التي تظهر أمامه؟

كيف يعرف أنه ما زال لك كل شيء؟

قل لي يا قلبي ماذا أقول لقلبي؟

كيف أصدق أنك تنام في بعض الليالي دون البحث عني؟

تذهب وتعمل دون الاطمئنان على نصفك الآخر؟

كيف أستطيع أن أعيش دون روحي فجأة؟ كيف تمنع عني الهواء وتعود مستنكراً قسوتي؟ كل يوم بعيد عني أموت ألف سنة وتتفتح جراح جديده في قلبي لا أعرف سببها ولا أستطيع مداواتها

لا يحق لك ذلك يا صبري.....

لا يحق أن ترجع لي روحي وتأخذها بعد ذلك .....

أنا التي قلبت موازين تفكيري وحياتي لك وبك.....

أنا التي قلما تتحرك مشاعري لرجل... تحركت لك وتدفقت لك....

وكنت أخشى من عدم تفهمك لذلك.....

وكنت أرددها دائماً هل ممكن أن تبتعد عني لأي سبب من الأسباب؟

وتقول لا أستطيع مستحيل...

كيف يمر يومي دون سماع صوتك الذي يُعينني على الحياة؟

كيف يمر يومي دون معرفة ماذا بك؟

كيف تشعر ببكائي وقلقي وحزني وأنا البعيدة عنك..... كنت تقول لي أنك ظللت مستيقظة أمس... وتكون الإجابة

كيف عرفه؟!

"كلماتك أغلقت باب محاكمتك":

ها أنت تأتي فتعصف بي من جديد وتتحدث فالتمس العذر الجميل.
كيف محادثة واحدة تشتت فكري الشديد وتبعثره، وأنا التي خلقت من ضلع عنيد.... كيف أغلقت كلماتك أبواب محاكمتك التي أعدت من زمن بعيد...؟ كيف يمحو صوتك قائمة العتاب الطويل.... كيف تتسرب لعقلي وتذهب كل شيء بغيض؟ كيف تتحكم في غضب قلبي وتجده تحت أقدام حبك الجميل.....؟
كيف أعد لهذه المكالمة طويلاً وتتحدث فينسي عقلي المسكين؟ كيف تجفف دموعَ ليالٍ سألت كثيراً غيابك...؟ كيف تقنعني بصواب كل شيء معك.... كيف أغير قوانيني معك وينتفض قلبي عند سماع صوتك؟ كيف يتغير لون وجهي عند سماع اسمي من شفتيك وأنا التي كتبت لي قصائد غزل جميل...؟ كيف تبعدني عن اتخاذ قرار ثقيل....؟ كيف يعود بعد مكالمة واحدة إلى لهيب مشاعرنا الجميل....؟ كيف أغفر لك وتتفتح أركان قلبي من جديد....؟ كيف تعود بقوة يا رجل وتقذف بي من جديد في فيضان رجولتك فلا أستطيع التحدث وأقول هل من مزيد....؟!
لماذا تتغير قوانين الطبيعة عندما أتحدث معك.....؟ ما الذي تحدثه في إطار عقلي الزمني.....؟ كيف تتسلل داخل أوردتي وتغير تركيب دمي.....؟؟

كيف الملاذ من عواطفك التي كلما أتتني.....؟؟ ركعت مستسلمة لمقاليد حكمك.... قولي بالله عليك كيف تفعل ذلك بي؛ فأنا في حالة هذيان كيف تطبطب على قلبي فأخر صريعة بين يدي عشقك..... كيف أُسمي هذا؟ ماذا أطلق عليه؟ كيف أصنفه؟ ما هي قوانينه؟ من الذي وضعها؟

كيف طالما بعدت.... أشتاق أكثر لك كيف يوقظني ليلي إذا توقفت عن التفكير بك؟ كيف تتحكم في يوميات عقلي ونبضات قلبي وأنت البعيد عني؟ كيف تكون بعيداً وقريباً في نفس الوقت؟ كيف تلتف من حولي وأنت لست هنا؟ كيف أشعر في كل شيء حولي؟ كيف يستشيرك قلبي في كل شيء قبلي كيف تلجأ كل جوارحي لك وأنا الأقرب إليها؟ أرجوك يا خليل قلبي إذا كنت الظالم والحاكم في حبي..... فاحكم دائماً لصالحي..... لماذا يقول الناس ذلك على أية حال؟ أن يكون لديهم وقت كيف يكون لديك وقت في حين أنّه من الواضح أنّ الوقت يملكك؛ فبطريقةٍ ما، في وقتٍ ما، يبدأ المستقبل بمكانٍ ما، لم أنتظر طويلاً الآن ظننت أنه لا يزال لدي وقت.... أشكرك لكونك ترافقني. أتمنى أن نبدأ بداية جميلة أين بدأ كل شيء؟ أين بدأت الأمور؟ في الماضي؟! ربما في المستقبل؟ من يستطيع أن يقول أين بدأت؟ هل سنستطيع يوماً ما أن نصل إلى أصل كل الأمور؟ هل يوجد أصل قبل ذلك؟ وقبل ذلك؟ وقبل ذلك هل هناك وجود لبداية ونهاية؟ أم أنّ الأمر متصل كله دورة لا نهائية؟ وهل البداية والنهاية هما مجرد كلمتين مختلفتين. لنفس اللحظة؟ البداية هي النهاية

والنهاية هي البداية. كل شيء مترابط المستقبل والماضي والحاضر. لا أستطيع أن أقول لك ما هو إمدادك هذه النهاية..... البداية كل ما يعنيه الأمر ليس معنياً لنا أن نعرفه بل التاريخ هو الذي يقرر كل ما يمكننا معرفته هو أنفسنا؟ هل المستقبل هو الآن؟

هذا سؤال معقد مثل جميع مشاكل الإنسان نرجع معاً لسؤال ما هو الوقت؟ يمكنكم أن تروا الوقت كحركة من نقطة إلى الأخرى وأيضاً هو كل حركة الماضي الكبير الذي نحن جزء منه، أنتم كلّ حركة الذاكرة الآن "حزمة ذكريات" بدونها أنت غير موجود هذا واقع شئتم أم أبيتم.

نحن الآن بعد تلك الآلاف من السنين والقرون، كل ذلك الإحساس الواسع بالوقت هو الآن.

إذاً المستقبل هو ما نحن الآن، الماضي هو المستقبل؛ عند الرجوع للماضي تذكر الحاضر ليس تاريخاً وحسب إنه شعور كل ما هو سلبي؛ يمكن قلبه إلى إيجابي حينما تعرف الكيفية؛ الحنين هو عدوك لا تفكر بالماضي بينما تستمع للموسيقا مثلي، الوقت ليس نهراً؛ الوقت كالغابة مملوءة بالوحوش.

حتى الحاضر لا يستمر، اللحظة تنتهي حتى عندما نقول الآن، ولا يمكن أن نمسك بالحاضر.

_فكيف يمكن القول لوجوده إذا لم يكن ثابتاً للحظة واحدة؟!

وجود الزمن يعني أن كل شيء في الكون دائم التحول بقدرٍ محددٍ

فى هذه الأثناء بالزمن بين الزمن متخاطرة متحولة تعيش في خط الحاضر محاصرة "بحاضر لا ينتهي" بلا قوى لتخرج نفسها من مصير محتوم؛ مالم.....

أمام عينيك يمر صف طويل من العبيدِ والإماءِ، أسرى حبهم وغبائهم وكسلهم ونهمهم لخيرات الحياة يملؤون الحياة بالحديث الركيك عن المستقبل، إذ يشعرون أنه لا مكان لهم في الحاضر..... يقولون عن الوقت بأنه يشفي كلّ الجروح لكنهم لا يعلمون أنّه يدمر كل شيء جيد في هذا العالم.

_كيف يتحول الجمال إلى رماد؟

الوقت هو نسيج ميت لا يتحلل.....!

نحن محبوسون في الوقت، اللحظة الحاضرة هي ملكك النهائي؛ اقبض على اللحظة قبل أن تقوم أطياف الماضي وهواجس المستقبل وتجتمع على التهامِ الحاضر الذي لا نملك سواه

مهما غبت عنك من زمن رأيتك كأنه الأمس لماذا لم تقل هذا من البداية.....؟؟

البداية والنهاية فكرة غريبة، إنه يجب أن يكون الاثنان الشيء نفسه هكذا خلق العالم

أنا هنا حتى نهاية العالم في الواقع!!!!!

عندما تنضج... سيقل الأصدقاء... وسيكثر المعارف... سيقل الباقون... ويكثر العابرون...

ستحمي خصوصية حياتك كأغلى ما تملك... لكيلا يفسدها فضول الناس.
عندما تنضج... ستنتبه لألوان الأشياء أكثر من علاماتها التجارية...
ستفضل التأمل في الغيم أكثر من التأمل في وجوه الكثيرين....
ستترك الجدال حتى لو كنت متأكداً من رأيك...

سيسعدك هطول المطر أكثر من سعادتك بالسيارة الجديدة... وسيمتعك الحديث مع الغرباء بالقدر الذي كنت تخشاه سابقاً....
عندما تنضج لن يعود لحكم الآخرين عليك سلطة أو معنى...
ستضحك كلما انتقدوك... ستبتعد إذا عاندوك... ستشفق عليهم بشدة إذا عادوك أو حقدوا عليك...

عندما تنضج... ستتقن فن الهرب من العلاقات المؤذية كما تهرب من العاصفة.... ستعطي لأنك تريد أن تعطي... دون ابتزاز عاطفي من أحد...
وستنتزع ما تريده من الحياة انتزاع الشجعان الذين يعرفون مالهم وما عليهم....

عندما تنضج... ستعامل مدينتك كسائح يزورها لأول مرة...
وستفرح بالشجر الذي يحركه الهواء... وستمشي طويلاً حتى تنسى من أين بدأت....

عندما تنضج ستسامح أكثر... ستسافر أكثر... ستضحك دون حذر...
ستبكي بلا اعتبار لمن يراقبونك...

عندما تنضج... ستقرأ أكثر وقد تكتشف في ذاتك هوايات أو مواهب ظننت أن المشاغل سرقتها منك...

النضج منطقة جميلة وقد يصبح المرء في الستين من عمره دون الوصول إليها... لأنه كان يبحث عن نفسه في الأماكن الخطأ ويحيطها بالأشخاص الخطأ...

وقد يندفع المرء في سلوكه وأفعاله إما بدافع قلبي أو بدافع عقلي، ولا ثالث بين ذينك، فالأفعال كلها تنسب -على الحقيقة- إلى قلب أو إلى عقل الإنسان.
ولعلّ تحديد بواعث الفعل والسلوك يعد خطوة ضرورية، وحتمية على طريق إنشاء العلاقات

فالسلوك القلبي يمتاز بعفوية وتلقائية؛ ومبعثه الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالإنسان مبرمج بأمر الله التكويني أن ينقذ نفسه تلقائياً مما يودي به إلى هلاك محقق، أي: تصحيحاً لما كنا قد تعلمناه في مدارسنا بأن الإنسان يتحرك بمقتضى الفعل المنعكس، فإن الكلام الدقيق في ذلك هو أن الإنسان يتحرك بمقتضى برامج فطرية مبثوثة فيه من قبل الخالق جَلَّ وعلا

وأما السلوك الذي مبعثه عقل الإنسان فتسبق ظهوره دائماً نية وعقد وإرادة وتصميم، وقوام هذا السلوك هو المثال المكتسب الذي يودعه المرء في ذاكرته مستمداً إياه من البيئة الثقافية التي يعيش فيها، فإن كانت البيئة الثقافية بيئة ملوثة فلا أظن أن يتمكن المرء عند ذاك من إنشاء علاقات متسامية.

إن الإنسان يمكنه التحكم بسلوكه العقلي، ولا يمكنه التحكم بسلوكه القلبي، إذ ما من امرئ يمكنه الحيلولة دون تسلل الحبّ إلى قلبه مثلاً، كما ولا يمكن للمرء أن يتجاهل عاطفة الأبوة أو الأمومة، كما ولا أظنه المرء يهوى ويتيه غراماً وفق نظام عقلي صارم!!

و جواباً على سؤال كنت قد طرحته سابقاً، ما إذا كان "الظلم" يعد من أعمال العقل أم القلب؟ فأقول:

1 - الظلم هو من أعمال القلب من جهة أنّ الله تعالى فطر بعض الناس على الظلم كي يتحقق بوجودهم معنى العدل؛ ذلك أنه تتمايز الأشياء بأضدادها

2 - الظلم هو من أعمال العقل، ذلك من جهة أن الإنسان يتعمد أحياناً أن يضع الأمور في غير موضعها الصحيح ويكون بذلك ظالماً.

الخاتمة:

نستنتج مما سبق أن اللغة والفكر شيئان متداخلان ومتكاملان، وإن كانت بينهما أسبقية فهي منطقية لا زمنية، وإن كان بينهما تمييز فهو نظري لا مادي وقد عبّر عن هذه العلاقة "هاملتون" بقوله:

"إنّ المعاني شبيهة بشرار النار لا تومض إلا لتغيب فلا يمكن إظهارها وتثبيتها إلا بالألفاظ كما يقول زكي نجيب محمود:

"الفكر هو التركيب اللفظي أو الرمزي لا أكثر ولا أقل"

وعليه فكل تفكير يتطلب لغة.

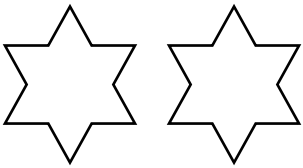

الجزء الثاني

1-النظرة الثاقبة بين الشك واليقين في الفقه الإسلامي

الشك لغة: مشتق من فعل شكَ، يشك في أمر ما... بمعنى التردد بين شيئين، ومنه كان نقيض الشك هو اليقين: الذي يعد اعتقاداً وإدراكاً جازماً لأمر معين، فيأخذ معنى العلم بوجهه الحقيقي.

أما في اصطلاح الفقهاء فقد عُرّف الشك: على أنه عدم التيقن في الحكم على الشيء، والمسألة تفصيلية في تقسيم الشك عندما يطرأ على مباح أو حرام، أو الشك في أمرٍ لم يُعلم أصله.

يقول المفكر زكي نجيب محمود: "بملاحظة تاريخ الفلسفة يتبين لنا أن نوع الفلسفة الذي يعتمد التفكير الذاتي: أعني تفكير الإنسان في نفسه وعقله فقط، يعقبه دائماً الشك؛ ذلك لأن المعرفة هي علاقة بين العقل والشيء الخارجي، فإذا اقتصر الباحث على النظر إلى عقله ونفسه مهملاً ما في الخارج، أدّاه ذلك إلى إنكار ما في الخارج من حقائق"

الدراسات والبحوث تؤكد جلياً تلك الموجة التي تأثرت بالشك سواء كان مطلقاً أو منهجياً في الوسط الإسلامي، ومن المعلوم يقيناً أن عقلية الشك إذا تدفقت وفقاً لفلسفة فارغة من التأصيل كانت باطلة ومردودة، فكان السؤال المطروح لزوما أي الطريقين أولى للعبور نحو معرفة صحيحة هل

هو الشك الذي يؤدي لطريق اليقين، أم هو اليقين باعتباره لبّاً للمعرفة بخطوة موزونة؟

صِنفٌ من الفقهاء يعتبر أن اليقين هو الانطلاقة الراجحة والأولى في اكتساب المعرفة، أبرزهم ابن حزم الظاهري الذي جعل من اليقين حكماً معيارياً، تخضع له سائر المعارف بأصولها وفروعها. يعمل على التمييز والتفريق بين الحق والباطل، المقبول والمرفوض، المحمود والمذموم، لاستناده على الحجة والبرهان والإثبات القطعي، لأن معنى اليقين هو زوال الشك، وخير تعريف ما جاء به الجرجاني: "اليقين هو اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال" (التعريفات ص**332**)

مطابقة الحكم للواقع في قول الجرجاني هو عين الحقيقة التي يجتهد ويصبو فيها العلماء وصولاً إلى المعرفة التامة، عن طريق التجربة الحسية أو ما يسمى باليقين الموضوعي.

ويقول أيضاً: "اليقين هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء"، أوليس محل العقل هو القلب كما ثبت في قوله تعالى: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها"(الحج**46**)

هذا لا ينفك عن كون اليقين قد يكون مطابقة الحكم للعقل الذي يعد أداة وأورغانون وميزان لمعرفة الصح من الخطأ.

وجاء في تعريفات الجرجاني قوله: "تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب".(التعريفات ص 332)

الغيب يأخذ معنى اليقين الذاتي، الاعتقادي الذي لا يقبل احتمال النقيض إطلاقاً، استوجب الأخذ والتسليم به، دون النظر لخلافه...

فاذا امتزجت حقيقة التطابق بين الذات والموضوع تشكلت الحقيقة اليقينية المعلومة جزماً وثبوتاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في (جامع المسائل): "اليقين هو استقرار الإيمان في القلب، علماً وعملاً"، الجمع بين النظري الاعتقادي والتطبيقي الواقعي هو أساس اكتساب اليقين وطريقه الموثوق.

جمع ابن حزم المصادر التي يحصل بها التصديق اليقيني في مدارك اليقين وقسمها إلى قسمين:

أولاً: مصادر ضرورية تعتمد على البديهيات التي لا تقبل الوساطة باعتبارها قضايا واضحة بسيطة تشترك فيها الآراء بدون دفع.

ثانياً: المصادر النظرية الاستدلالية، الموسومة بالمعارف المكتسبة من الأدلة النقلية السمعية (النصوص الشرعية/الكتاب والسنة)، وما يتجزأ عنها من إجماع وقياس واستصحاب، وقد سماها ابن حزم بالمقدمات.

لم يجعل ابن حزم تفاوتاً بين الطريقين (ضروري، نظري) أو (برهان أولي، راجع أولي)، الضروري أو البرهان الأولي هو المعلوم عن طريق العقل

والحس لا يحتاج لاستدلال، أما النظري الراجعي فهو الذي يستند على مقدمات نظرية عقلية.

المنهج الاستقصائي اليقيني عند ابن حزم يجعله يعد كل من استخدم مبدأ الاحتمال والشك في العالم الخارجي المستقل عن الذات ضرباً من تجاوز الطبيعة الإنسانية، وهذا ما ورد في تحليلاته وردوده على السفسطائيين، ووصفهم بـ"منكري ومبطلي الحقائق"، وإبطالهم كان معدوداً على ثلاثة أصناف:

"صنفٌ نفى الحقائق جملة وتفصيلاً ونفى وجود الواقع الخارجي، وصنفٌ استخدم الشك فيها، وصنفٌ قال: هي حق عند من هي عنده حق، وباطل عند من هي عنده باطل بمعنى الحقيقة نسبية".

وهذا التوجه ناتج عن اختلاف الحواس الذي يؤدي بدوره إلى الخطأ والزلل.

وفي هذا المعنى يجيب ابن حزم: "وكذلك يشهد الحس أيضاً بأن تبدل المحسوس عن صفته اللازمة له تحت الحس إنما هو لآفة في حس الحاس له، لا في المحسوس "وبهذا القول يفند ابن حزم وينقم على مبطلي الحقائق كونها مكابرة للعقل والحس معاً.

ابن حزم في منهجه اليقيني ورده على الشكاك يبين أن الإنسان ليس مقياساً للمعرفة وأن هذه الأخيرة ليست متعلقة ومرتبطة بالذات العارفة فحسب،

كما صنع السفسطائيون، بل هي منوطة بطريقين يشكلان ثنائية العقل والحس وتكاملية المعرفة داخل النفس.

منهج الشك لازم الحضارة الإنسانية منذ بدايتها الأولى، فهو معهود قبلها بتاريخ يسبق الديانات السماوية وحتى المعتقدات الدينية التي سيطرت على عادات القبائل، فالبوذية على سبيل المثال جاءت مشككة في الهندوسية وما كان متوارثاً بين أجيالها.....

كما هو معلوم أن الفلسفة باعتبارها محبة للحكمة تسعى لتقصي الحقائق والبحث عن المعرفة والتأمل فيها بعد ممارسة عملية الشك التي تأسرها لتقبض على حجرها الأساس وتستخرج من باطنها اليقين، هي رحلة لإثبات المنفي وتعريته من الشوائب، تجنباً للأخذ بقشور المباني، توسعاً في جلب مآخذ المعاني.

يقول الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكارت: "بحثت في الوجود فلم أجد موجود إلا أنا، أنا أفكر إذن أنا موجود، وكل موجود لابد له من موجد، فمن الذي أوجدني لا يجوز أن يكون الذي أوجدني أقل مني لأنه لا يجوز أن يقدر الأدنى على خلق الأعلى، ولا يجوز أن يكون الذي خلقني مساوياً لي، لأنه لو كان مساوياً لي فلماذا لم أوجده أنا"

الشك كان بمثابة المحرك الفكري لفلسفة ديكارت؛ بحيث جعله يتغذى بالتغيير الديناميكي دون التسليم بأفكار وتصورات موروثة تشكل قيم وعادات وأعراف المجتمع، مع ممارسة نوع من التحدي الذي لا يؤمن ولا

يقبل بكل ما هو موجود ذاتياً وموضوعياً إلا بعد تفحصه وتمحيصه وإخضاعه للنقد والتحري.... كانت العملية بداية تستأنس بالحواس والتجربة ليكتشف أنها مصدر غير موثوق يخدع في كثير من الأحيان "رأيت أن الحواس تخدعني ومن يخدعني مرة واحدة، لا أثق فيه"، تذوق الطعام مثلاً يختلف عند الشخص أثناء صحته ومرضه، فالعرض قائم على التغيير، وليس بثابت. الأبراج علوها ظاهر بالقرب صغر حجمها مكشوف للعيان بالبعد، وهكذا....

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أبرز العلماء الذين تبنوا المنهج الشكي ومن السباقين إليه، فابتدأ بمرحلة الشك في العقل والحواس معاً وفي قدرتهما على التحصيل العلمي،

يقول: "من لم يشك فلم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر يبقى في متاهات العمى".

حاول الوصول إلى الحقيقة عن طريق مبدأ الشك، خصوصاً أن العصر الذي عاش فيه (الخامس هجري)، هيمنت عليه الفلسفة الإسلامية بمذاهبها وفرقها الأربع: أبرزهم الفلاسفة من أهل النظر والبرهان والمنطق (والغزالي من أهم العلماء الذين تكلموا عن الفلسفة والفلاسفة معتبراً أن حججهم لا تستوفي الشروط العلمية لذلك هي باطلة وغير مقبولة، ومعلوم عنه تصديه للفلاسفة وألّفَ كتاباً أسماه مقاصد الفلاسفة مبيناً منهجهم

(المتكلمون من أهل الرأي والنظر)، (اعتبر الغزالي أن علم الكلام تتجلى مهمته في الرد على الشبهات وحفظ العقيدة فهو دواء لا غذاء)
الصوفية أهل المكاشفة والمشاهدة وخواص الحضرة الإلهية والنور (كان يحضر مجالس الشيخ الفضل بن محمد الفارمذي الصوفي، فتأثر به وأخذ عنه الطريقة، ويعتبر كتاب إحياء علوم الدين أشهر مؤلفات الغزالي في التصوف)
الباطنية الذين يزعمون أنهم أهل التعليم والخبرة والاقتباس من الإمام المعصوم.
سعى الإمام الغزالي لتقصي الحقائق والبحث عنها من خلال هذه المذاهب السائدة، حتى أصبح أبرز علماء الكلام آنذاك ومرجعهم، فقام بتحليلها بدقة فتمكن من معرفتها ومصدرها ومغانم آرائها وهذا ما دفعه لشحذ قلمه في كتاب "المنقذ من الضلال".
كانت أبرز مقولة للغزالي: "علمني الشكُ اليقين".

بين الشك واليقين وكثرة الجدل والنزوع نحو التضارب في الرؤى لدى الفقهاء يقتضي بنا الحال للولوج نحو بئر الأمان المعتدل الوسطي، فالحقيقة المطلقة التي لا تحتاج إلى تفسير أو شك هي حقيقة الذات الإلهية؛ حتى وإن تعاملنا بالمنهج العقلي، فتلك الحقيقة تعلو مقاماً على كل تفكير مصدره العقل، ويبقى الإنسان باعتباره كائن بشري نسبي تتغير ظروفه الواقعية

مقياساً للنسبية في حقائقه التي تستدعي الشك أحياناً للوصول إلى اليقين، ويقينية لا تتعامل بالمصادرات إنما بديهيتها ترسخت وأَضْحت ميزة خاصة.

2- قانون الكون ومُدركات الإنسان

الكون هو الحجم النسبي لمساحة الفضاء الزمكاني والذي يتسع لكل ما هو موجود كالكائنات والكواكب والمجرات، تباينت النظريات قديماً حول نشوئه لكنها ظلت في حدود التصورات الفلسفية إلى غاية **1916**

عندما حلَّ العالِمُ الفيزيائي صاحب النظرية النسبية ألبرت أنشتاين معادلات تلك النظرية التي تتوجه نحو تمدد وتوسع الكون. لتأتي بعدها نظرية الانفجار العظيم التي لاقت قبولاً في صفوف المجتمع العلمي.

اشتهرت كلمة **cosmos** في الاستعمال الإغريقي الفلسفي؛ وكانت تعني "النظام"، وقد كانت أول محاور الحكمة اليونانية هي التأمل الكوسمولوجي والذي يعد أحد مصاف الكون وتاريخه.

مادام التعريف العام للكون يشمل النظام، فإن الانتظام بحد ذاته يحتاج لقواعد تسطره وقوانين هادفة تضبطه، وبما أن الكون غير ثابت في ماهيته فهو بالضرورة حركية طاقوية تشمل كل ما هو موجود، ومن بين الموجودات الكائنات الحية، وخير كائن تمتزج فيه الروح العقلانية الثابتة مع الطاقة المتحركة هو الإنسان فكيف يمكن لهذا الكائن فهم وإدراك قوانين الكون؟ الفهم يحتاج لوعي وإدراك وإرادة وعقلنة لا تشوبها عواصف العاطفة ومن أهم قوانين الكون التي لابد للإنسان أن يتعامل معها كالآتي:

تقبل العالم في وحدته وصراعه... ووحدته وتغيراته ووحدته وتنوعه... بلا أي تقييم.

فعلى الإنسان أن يرى ويتقبل نفسه كاملاً متكاملاً ...

بلا أي إدانة أو نقد أو استعلاء على الآخرين... ويكتشف الكمال الذي لا مثيل له في نفسه وفي هذا العالم.

التعامل مع الكون هو تعامل مع الأشياء والأشخاص، هو تعامل مع الذوات المتحركة ومع الجمادات الساكنة.

قانون الفيزياء الطبيعي يرى أن السالب مع الموجب ينتج عنهما تجاذب، وهذا ما يلزم أن يحدث بين الجماد والكائن الحي، فقد تم تسخيرها مسبقاً من رب الوجود جل جلاله لخدمة الإنسان، وذلك بعد تصديه وتحدّيه بفضل تفكيره وجرعة إدراكه العقلانية والتجريبية معاً.

الكون في الثقافة الإسلامية يشغل حيزاً واسعاً يتناسب مع عظمته في حياة البشر، والبحث في علاقة المسلم بالكون تعبير جليّ على الرقي الإنساني، هذا الأخير الذي يتعامل مع رب الكون ومع موجودات الكون، لابد له من التعامل مع الكون، الأولى تقتضي العبادة والثانية تقتضي القيم السلوكية والأخلاق والثالثة تجمع بين القيم وحسن التدبر.

ذُكرت كلمة الكون في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، كسنة الله في خلقه تستدعي التسخير، يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: "وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار "سورة إبراهيم (٣٢،٣٣)"

جاء الإسلام بنصوصه الشرعية للحث على التوازن والانسجام بين الكون والإنسان، وإبطال عقيدة الصراع والنزاع التي كانت سائدة قديماً فيما بينهما، فالكون ليس هرماً مقدسّاً ولا عدوّاً مناقضاً ولا سيداً نمارس له العبودية، وُجد لغاية التسخير وهذا ما جعل من العلماء والمفكرين وذوي اللب من المخترعين أن يغوصوا في مضمار الاستكشاف والبحث لمعرفة أسرار الكون وسننه.

هذا ما أفضى بالعلم لاستخراج خيراته وثرواته والانتفاع منه مادياً ومعنوياً، وهكذا يستطيع الإنسان بفضل العمل تحقيق حاجياته البيولوجية المادية وتحقيق توازنه النفسي وإشباع جانبه الحسي الوجداني.

وُجد الكون لخدمة الإنسان بجمالياته المتعددة والمتناغمة، وهذا ما أدركه المسلم في آيات الله، بعدما ارتكبت الحضارة الغربية في حقه جريمة حين ألغت كل الدلالات الغيبية وأفضت بالصراع مع الطبيعة والمادة، لتعود مرة أخرى كي تأسر ثروات الأرض واستغلالها الفاحش وأنذرت باختلال التوازن البيئي.

ثقافة الإسلام أبعد من هذه التصورات الغربية تدعو للصداقة بين الإسلام وبيئته وكأنها تمتلك شعوراً وإحساساً يتبادلانه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "جبل أحد يحبنا ونحبه" رواه البخاري ومسلم.

النار أحسنت معاملة سيدنا إبراهيم عندما كانت برداً وسلاماً له، والبحر احتضن سيدنا موسى وهو رضيع، والكهف المظلم الموحش كان سكينة لأهله، والريح سارعت لتحمل البشرى إلى سيدنا يعقوب عليهم السلام.

حتى لما تحين الساعة، للشجر والحجر دور في كشف اليهود فيصطف الكون مسانداً للمسلمين في معركتهم الفاصلة فينادي الحجر والشجر المسلم ويدله على مخبأ اليهودي ليخلص الأرض من نجسه.

إن تعاملنا مع الكون يجعل من الإنسان أكثر إدراكاً لحقيقة قدرة الله، ولايزال هذا الكون البديع يخفي أسراراً ومنافعاً جمّة ما يجوب بذهن الإنسان لمعرفة كنهها ومفاتيحها.

3- سيكولوجية القيادة ومناهج البحث

القيادة تحمل تعاريف متنوعة تصب في معنى واحد، فهي القدرة على التأثير في الآخرين، وتحفيزهم على تحقيق الأهداف، تحرّك الناس نحو الغاية المنشودة كما أنها فن من فنون اتخاذ القرار، تتطلب عناصر معينة تجعل منها متكاملة: القائد، الهدف، الجماعة، المواقف والظروف.

فن موروث قابل للتعلم والاكتساب، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة"، والمعنى لا تجد في مائة إبل راحلة تصلح للركوب، لأن الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون سهل الانقياد، وكذا لا تجد في مائة من الناس من يصلح للصحبة ويعين عليها ويلين الرفقة.

بعض الدراسات أعطت نسب متفاوتة تعبّر عن سمة القيادة، وكانت نسبة **2**٪ تمثل جماعة البشر القادة بالفطرة، لتبقى نسبة **98**٪ من البشر ليسوا قادة بالفطرة لكن لو تعلموا سيكتسبون القيادة.

يتصف ويتسم أي قائد ناجح بالصدق والثبات والموضوعية وعدم التحيز والمرونة، سلوكه وتصرفاته سوية، عادل منصف لكلمة الحق حتى يصبح في أحسن صورة، قادر على بث روح الحماسة والتحفيز في نفوس الجميع، باحث ومفكر ومطور ومحسن للأداء، مثقف وذكي وسريع البديهة.

التخطيط معياره والتنفيذ لمن هو أهل له، يتمتع بصحة نفسية متكاملة الشخصية وموزونة، حسن الظن ومتواضع، موجه ومدرب، قدوة حسنة ذو خلق حميد، لديه علاقات اجتماعية قوية، يتفهم ظروف الآخرين. لديه قدرة المهارة على التفاوض والتواصل العقلي والانفعالي والنفسي مع الآخرين. يعرف مشاعرهم واتجاهاتهم وميولهم وقدراتهم من أجل العمل على حل مشكلاتهم.

تندرج أنماط القيادة تحت مفاهيم لابد من وجودها كشرط أساسي، فالقادة هم الذين يبتكرون ويغيرون الثقافة التنظيمية وملتزمون بالتحسين المستمر للأداء، ويتحدَون الوضع القائم ويشجعون أعضاء جماعاتهم، والتجديد وعدم الخضوع للأحكام السابقة وموروثات آبائهم.
موضوع القيادة كان محل اهتمام علماء النفس لمعرفة السمات التي تميز القادة، وعلماء الاجتماع لأنها أبرز محاور ديناميات الجماعة، تنبثق من وجود الفرد في إطار الجماعة بغية الاتصال والتنظيم.
مذ عهد كونفوشيوس الفيلسوف والمعلم الصيني المعروف بحكمه ورصانته وتفاعله بين أفراد مجتمعه، عُرفت القيادة الفعالة:
كونفوشيوس استطراداً لما قام به، فقد كان ينشر تعاليمه وفلسفاته الأخلاقية بناءً على مبدأ ضبط السلوك الذاتي والتوافق الجمعي (حب الآخرين)، وبما أنه أحاط بالسياسة فقد نبّه في تعاليمه على ضرورة اعتماد

الحاكم على تدريب نفسه ليكتسب صفة التواضع، وتحفيز أفراده ومحكوميه على اتباع القوانين مما يضطرهم للاقتداء به وتوحيد الطقوس الدينية.

لكن دراستها (القيادة) وفقاً لقواعد منهجية وأسس علمية لم يكن إلا في بداية القرن التاسع عشر.

تتخذ سيكولوجية القيادة رسماً بيانياً ينطلق من دراسة ظاهرتها وأبعادها في ظل المنهج متعدد الأساليب، نفسياً وسيسيولوجياً وتربوياً.

أ-المنهج التحليلي النفسي: يسعى وراء اكتشاف السمات والصفات الخاصة بالقادة عبر التاريخ، أو استخدام تقنية وعملية الانتقاء من طرف الجماعة لفرد معين، ثم يخضعوه للتحليل من أجل معرفة نسبة سمات القيادة الموجودة فيه، وكل ذلك يحتاج لوسائل وأدوات بحثية تتمثل في عنصر الملاحظة والقياس وهذا ما يعتمده علماء النفس، فالملاحظة العلمية باعتبارها مشاهدة حسية هي مورد مهم لمعرفة السلوك القيادي، علاوة على أسلوب المقابلة والاستبار الذي يخضع الطرف المعني بالأمر للمواجهة والحوار قصد أخذ المعلومات وتقصي السلوك، كما أنّ اختبارات الشخصية قد تكون مفيدة بدرجة أكبر أبرزها الاختبارات الإسقاطية التي لاقت نجاحاً منقطع النظير في دراسة الشخصيات القيادية.

ب-المنهج الاجتماعي: استخدام القياس الاجتماعي السوسيومتري من أهم الأساليب الكشفية عن تكوين المجموعات، إذ تشتمل على تعيين أفراد المجموعة لأشخاص يفضلونهم ويعتقدون أنه مهمين في وسطهم، لتبدأ عملية التحقيق والكشف لدراسة الشبكة والعلاقة الاجتماعية ومدى التجاذب أو التنافر بوضع رسم بياني يدعى السويسوجرام، وفيه يتضح أكثر شخص مقرب من الجماعة ويحظى بمكانة مرموقة بينهم.

ج-المنهج التربوي: محاولة دراسة الميولات والظروف الأسرية للقادة السابقين، باستخدام أدوات أرشيفية للتعرف على سماتهم خصوصاً الدور التربوي الذي جعل من القائد معلماً بين أفراد جماعته.

من هذا القبيل تعددت النظريات التي تفسر أهمية القيادة ومتى يمكن أن يصبح القائد قائداً!!!

نظرية السمات تغلب الجانب الوراثي في تحديد القيادي بمجموعة من الصفات ترتكز على مجموع السمات الموجودة عند الطبقة البرجوازية والتي تكرس بدورها لمفهوم التمييز والطبقية وحصرها في فئة معينة دون الأخرى.... الحقائق العلمية تاريخياً تفند هذه النظرية، لكن لا يمكن إبطالها كلياً لوجود بعض المقومات عند أشخاص توفرت فيهم سمات القيادة.

نظرية المواقف ترى أن المواقف هي التي تفرز القادة وتجبرهم على اكتساب سلوك قيادي، فهي ليست حكراً على تواجد سمات معينة، بل الظروف

والمواقف هي التي تصنعها في بعض الأحيان، فيكتسي صاحبها أفعالاً تعبّر عن قيادة حكيمة وشجاعة.

لكن لا يوجد أي مسوّغ عقلي يقبل هذا الموقف، فمنطقياً القيادة شاملة زمكانياً وليست محددة بوقت أو ظرف ما.

النظرية المشتركة كانت بمثابة التركيب التوافقي الذي يجمع بين جدلية المواقف والسمات، لتعطي إشارة أن أبرز صفة للقيادي الناجح هي الذكاء المتوسط الحد، لا عبقرية ولا غباء.. الاعتدال يولد شخصية متكاملة تمزج بين المهارة والمعرفة والقدرات الخاصة.

القيادة في الأخير هي ما يحقق إشباع الفرد ورضاه، ملامحها الاتزان الانفعالي لدى القائد وجماعته.

4- الهوية الإنسانية في ظل التحديات المعاصرة

الهوية موضوع إنساني خالص، يعبّر عن الحرية الذاتية، ظاهرة كونية تعلو على مفهومها النفسي، ارتباطها بالفلسفة وثيق، أثيرت حولها قضايا عُرفت بصراع الهويات لتتحول إلى موضوع تاريخي تراثي.

الهوية لفظ مركب من الضمير المنفصل "هو"، وتعني مطابقة الشيء لنفسه... الشيء يبقى هو هو، تتعلق بالشخصية وبالكيف والعدد.

الهوية في الفكر الفلسفي تعبر عن ضرورة منطقية تؤكد أن الموجود هو ذاته دوماً، فالشخص هو هو مهما اعترضته وطرأت عليه جملة من التغييرات (مبدأ الهوية)، فاللمحة التاريخية تثبت أن الهوية ليست مفهوماً معاصراً أو مصطلحاً حديث النشأة، لكن له جذور قديمة تعود للفلسفة اليونانية التي احتدمت فيها الآراء بين فلاسفتها، فأفلاطون يعتبر أن الهوية جوهر سرمدي تظل أزلية لا تتأثر بالمتغيرات، بينما يؤكد أنصار أرسطو على أن مصطلح الهوية منسوب إلى أرسطو دون غيره، فهو واضع علم المنطق والذي حدد فيه قواعد التفكير الصحيح (الهوية، المبدأ الثالث المرفوع، عدم اجتماع النقيضين في آنٍ واحد)، وهذا ما يمثل الهوية الرقمية والكيفية، تعددت أنواع الهوية بين عددية تتعلق بالأجسام الفيزيائية

وتغير الذرات المكونة للجسم الفيزيائي الواحد، وهوية نوعية تشير إلى الكائنات الحية وتغير أجزاء الجسم.

لتبقى الهوية الشخصية العامل البارز والنوع الأجدر بالدراسة.

فالهوية الإنسانية هي تلك البصمة التي تميز الشيء وتجعله فريداً من نوعه، تكوّنها خصائص معينة تجعلها جوهراً أساسياً يمثل الجانب المعنوي والمجرد للفرد، لكن توسعت دائرة الرؤى لدى المفكرين وعلماء النفس والفلاسفة، كل ووجهة نظره، ومن المسائل التي أثيرت تغيّر الإنسان من حيث خصائصه، لتطرح إشكالية إمكانية تغير الهوية لدى الإنسان بمجرد عدم ثبات خصائصه الجوهرية والتي ساهمت في تكوين شخصيته.

نظريات فلسفية متعددة فصّلت في مسألة الهوية، أبرزها نظرية الجسد التي تعلن عن استمرار ثبات الهوية باعتبار أن الإنسان يبقى ويظل في جسد واحد من ميلاده لغاية مماته، كان هنا العلم هو الفصل في إبطال هذه النظرية كون أن الجسد تعترضه تغيرات متنوعة، فليس بالضرورة بقاء الجسد الذي وُلد عليه الإنسان هو نفسه جسده الحالي.

توالت الانتقادات على نظرية الجسد من فلاسفة لهم باع في المنهج الحسي أمثال جون لوك الذي ربط الهوية بالجانب اللامادي.

موضوع الهوية له حضور في جميع المجالات سواء في النصوص القانونية أو الحوارات السياسية أو القضايا الاجتماعية، أو التيارات النفسية، وتبقى

حقيقة الهوية هي أصلها الفرداني المتعلق بالجانب الشعوري وكيفية بناء علاقة مع المحيط الخارجي.

عناصرها تمثل النموذج الأمثل لتواجدها الحقيقي فاللغة باعتبارها أداة ووسيلة للتواصل والتفاعل مع العالم الخارجي والآخر، هي حلقة وصل بين الأجيال تنقل خبرات وتجارب السابقين للاحقين فتتكون السيرورة المزدوجة بين فكر الأسلاف، والائتلاف المجتمعي الذي ينخرط فيه الجيل الحالي كضرورة خبراتية يتحقق بها الاندماج.

الانتماء الديني: يعد أحد رموز وعناصر الهوية، والتي تشير لمفهوم الإيمان والاعتقاد بدين يخضعون له بالطاعة والولاء، والدين كمؤشر عقدي، عُرف عند اللاتينيين بصيغة العبادة والرباط الذي يرتكز على الخضوع والخشوع.

والدين هو المعتقد المسلم به دون المطالبة بتمحيص لأن نصوصه تخضع للوحي.

الانتماء السياسي: يرتكز على مفهوم المبايعة، واحترام قوانين الجماعة المخولة والرضوخ لها بحكم تعزيز الهوية الاجتماعية والتقارب الفكري الذي من شأنه العمل على شؤون الصالح العام حتى لو احتاج للنقد من أجل التغيير، والدفاع عن حقوق الإنسان في إطار تكتلات وتنظيمات وجمعيات.... حبّاً في العمل والتنمية الاقتصادية والاجتماعية معاً، تصدياً لأي دخيل خارجي يحاول ممارسة العدوان أو المساس بالسيادة.

جوانب مهمة وركائز أساسية تقودنا للغوص في موضوع الهوية وعلاقتها بالإنسان المعاصر في ظل التحديات التي قد تُخضعه لمقاييس ربما قد تكون بعيدة عن عناصر الهوية التي نعرفها خصوصاً ما يتعلق بالجانب الديني.
الهوية الشخصية تُستمد من الجانب النفسي بالدرجة الأولى لارتباطها بآليات الوعي الذاتي في انفعالاته وميوله وأفكاره وتصوراته..... وهذا ما جاء في الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر إذن أنا موجود"، تتشكل هذه البوصلة في إطار معرفة النفس البشرية والتركيز على جوانب الإلهام والحدس والضمير كمعايير قبلية تؤكد فاعلية الذات والشعور، لكن يبقى هناك حاجز يجعل من الديكارتية تتناسى عمق الوجود الخارجي والعوامل الموضوعية أساساً لتشكيلة الهوية الشخصانية، هذه الأخيرة ترتبط بالملكة الفطرية دون منازع لكن مع اكتسابات البيئة والأطر الاجتماعية التي تبني جسراً كبيراً في فلسفة الإنسان المعاصر، لا يمكن استبعاد هذه العوامل في تكوين الهوية مهما توالت التحديات.

أبرز التحديات التي يشهدها الإنسان المعاصر هي إشكالية الأصالة والمعاصرة ومدى ارتباط أفكار الخلف بالسلف، خصوصاً مع التعاملات التقنية التي فرضت نفسها على العقول فتبرمجت على عدم إسقاط الموروث القديم (الأجداد)، بمفاهيم العصر الحالي، وكأن التوثيق لم يعد له جدوى في الوصل والتدوين ويظل مجرد قراءة سطحية لا تتماشى مع المتغيرات.

لكنه ليس بالأمر الكبير أو الجلي الذي يستدعينا للتساؤل والإجابة عنه بديهية... لو تأملنا المسار التاريخي للمجتمعات لوجدناها ارتكزت على نفس جوانب المجتمعات الحالية فمنذ القديم تكتسح العقول صفة الأحكام المسبقة، وتقديس العادات والتقاليد مما عجّل بظهور مصلحين اجتماعيين يدافعون إما على العقيدة أو ينبذون سلطان الفكر التقليدي، إرهاصات وجذور لا ينكرها الماضي نفسها متواجدة حالياً، فهل هذا المنحنى الزمني يفرض علينا تسمية ما نحن عليه اليوم بالمتغيرات!!!!

متغيرات طبيعية مادام أن الواقع متغير ونسبي وأن الفضاء البيئي الاجتماعي يتغير بتغير الأجساد، ويفرض تغير العقول مما يوحي بتغير الهوية.

النتيجة التي نتوصل إليها بالتحليل والتمحيص والرجوع إلى المصادر بنوعيها الإرادية واللاإرادية تثبت لنا مدى سيطرة الواقع على الهوية الشخصية للإنسان في الماضي والحاضر.

بيد أن الرؤية الفاحصة القياسية تبرز الاختلاف والتباين بين الأشخاص، قد نجد إنسان معاصر تسيطر عليه أفكار بدائية وخرافات أسطورية، بالرغم من التنوع الثقافي والتكنولوجيا الرائدة، كما نجد شخصيات تعيش حياة يسودها النظام الحالي بجميع تفاصيله (الانصهار الثقافي مع الدول الكبرى)، متناسين العقيدة والانتماء الديني الذي ترعرع عليه آبائهم وأجدادهم، هذه التفاصيل تستوجب منا تحليل لهوياتهم ومدى تأثرها بالتحديات... هذا هو

الأمر الذي نختلف فيه مع سابقينا بالرغم من وجود صفات مشتركة..... في القديم ليس بالبعيد كانت هناك هويات متباينة جزئياً في عناصر الهوية الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والدينية وحتى السياسية، لكن تباينها لم يُفضِ إلى اختلال في توازن المجتمع، كنا نراهم كرؤيتنا للتشابه الفيزيولوجي لعيون أبناء جنكيز خان.

غير أن زمننا أصبح علامة فارقة تزاحمت حولها الأقلام لمعرفة أسباب الظاهرة للخروج بقانون اجتماعي يوضح ويفسر بواعث الاختلاف في الهوية.

عودة لسالف العهد وبداية البشرية، قابيل وهابيل بالرغم من أخوتهما كانت هويتهما الشخصية تشكل مفارقة واضحة أساسها سيكولوجي بالرغم من نفس انتمائهما القانوني والأسري والاجتماعي. لكن سبب الاختلاف هو العامل النفسي الذي تشكل في مكبوتات لا شعورية (سيغموند فرويد)، كان أساسها إشباع الغريزة والشهوة في حبّ الزواج من امرأة جميلة ولدت معه في نفس البطن(قابيل)، إذن مظاهر اللاشعور كانت المحرك الذي فصل في حقيقة الهوية الإنسانية عند البشر.

اللاشعور لازمته صبغة فيزيولوجية عبّرت عن الجمال وليس الروح، قابيل بالذات لم يكن كهابيل، فهابيل فاقه سلامة الباطن، لكن قابيل ركز على الجمال في أخت هابيل ولم يركز على هويتها الذاتية، هنا تم استنتاج أن

الباعث نحو تغاير الهويات هو الجانب النفسي الذي يشكل ثنائية الذات والغير، أو النفس والجسد معاً.

سيغموند فرويد قسم الجهاز النفسي إلى: الأنا، والأنا الأعلى، والهو، والشخصية هي محصلة التفاعل بين هذه الأنظمة الثلاثة...

الهو يمثل جزء فطري يُعنى بالغرائز الموروثة، وجزء مكتسب يتمثل في العمليات العقلية المكبوتة والتي منعها الأنا (الشعور)، من الظهور... الهو يعمل تحت نظام اللذة والشهوة بعيداً عن المنطق والقيم الخلقية

يسعى لإشباع الرغبات والدوافع الجنسية، في حين أن الأنا الأعلى هو الضمير المسؤول عن الضوابط والمبادئ الاجتماعية والأوامر والنواهي الأبوية، يشكل النقيض المباشر للهو، لا يقبل إلا الصالح وما تعلمه من قيم.

الأنا هو الجهاز الذي يوازن بين سلطة الهو وسلطة الأنا الأعلى، فقد نحكم على شخص بناء من تصرفات تنتمي للهو، وأحياناً أخرى يتسم بأفعال تتماثل والأنا الأعلى، وهي شخصية المرء في أكثر حالاتها اعتدالاً، تُوازن بين رغبات الهو والمعارضة من الأنا الأعلى.

لكن هذه النظرية ليست معياراً للهوية الإنسانية باعتبار أن الهويات متغايرة، فمن الجانب الاجتماعي الديني، تخلّص إبراهيم عليه السلام من قيود مجتمعه الوثنية ولجأ إلى الحنفية السليمة وعارض السلطة الأبوية، بدون تولي الهو مركزاً في شخصيته...، مما يجعلنا نسحب كلام فرويد إلا في حالات.

فيتضح جلياً أنّ الشر عموماً مقترن بالهو، والخير ما عداه.

الخير والشر من أهم الصفات التي تشكل شخصية الأفراد، يقال فلان خيّر معدنه طيب، ويقال فلان شرير معدنه خبيث.... لو تأملنا في كلمة معدن من جانب الخير لأعطيناها قيمة الغالي والنفيس، ولا يوجد أنفس من الجوهر... ومن معاني الذات والنفس: الجوهر والماهية.

الجوهر هو الشيء الثابت الذي لا يتغير، نقيض العرض مما يعيدنا للخطوة الأولى التي ترى أن الهوية الشخصية بصمة أصلية لا يمكن أن تعترضها تغيرات من خلال مفهوم الذات ذات الطابع السيكولوجي والذي يعبر عن الأنا.

إشكالية لزم على الإنسان المعاصر تفكيكها بنيويا لمعرفة خصائصها الحقيقية ومعرفة لغزها، فهي بسيطة بشكل معقد تستدعي منا تقسيم الهوية الإنسانية إلى ثلاث:

هوية سطحية غير اختيارية: مرهونة بالطبقة الاجتماعية والبعد الزمكاني، الذي نشأ عليه الفرد، من باب العادة والمألوف يحتويها فتصبح جزء من شخصيته فالإنسان قد يولد في مكان ما وانتمائه لطبقة معينة دون اختيار منه، هي حتمية طبيعية يخضع لها كل شخص بدون إرادة منه، توصف بأنها هوية متغيرة، فالطبقة قد تتغير لدى الأفراد، فكم من فقير أصبح غنياً وكم من غني أصبح فقيراً، وكم من صحيح أضحى مريضاً، وكم من عليل غداً سليماً....

الهوية القصدية والاختيارية، تنبع من إرادة فاعلة ومنظمة تسعى للتغيير وإقامة ثورة وإصلاح للأيديولوجيات غير المرضية، على سبيل المثال تغيير شخص لديانة معينة كالإلحاد، أو اختيار الفرد للعيش بمكان أو دولة تختلف تماماً عن تقاليد موطنه الأصلي، والتعايش معها، هوية متغيرة بالضرورة.

الهوية الراسخة: عدم الرضوخ للأحكام القبلية والموروثات السابقة، وإن كانت لا تتوافق مع عناصر الهوية اللغوية والدينية والثقافية، ونبذ التبعية والتذيل التام، بل هي شخصية مستقلة تحتكم إلى معايير ثابتة وأخرى متغيرة (العقل والدين، المجتمع والواقع)، لابد من تحرير الفكر من السلطان التقليدي، واعتبار الهوية صيرورة لا كينونة.

للهوية عناصر ذكرناها سالفاً منها ما هو ثابت لا يجوز في أي حال من الأحوال تغييرها مثل العقيدة فلا تُطمس معالمها ولا يمكن تذويبها، يقول الرئيس الأمريكي نيكسون: "إننا لا نخشى الضربة النووية ولكن نخشى الإسلام والحرب العقائدية التي تقضي على الهوية الذاتية للغرب"، هذا دليل على أن العالم الإسلامي يشكل تهديداً صريحاً وتحدياً مباشراً للولايات المتحدة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين.

يقول اليهودي أدولف كريمر: "جنسيتنا هي دين آبائنا ونحن لا نعترف بأي قومية أخرى"، حذف اليهود أحد عناصر الهوية التاريخية القومية، مما يثبت أنهم قوم لا هوية تحويهم.

المجتمع وتحديات التكنولوجيا يمكن تغيير جملة التصورات والأفكار والاندماج داخل التغيرات التي تخدم البشرية سواء في الاكتشافات العلمية أو في الاصلاح الاجتماعي، أو الدعوة القيادية.

وفي الأخير، الهوية ترتكز على جانب ثابت وآخر متغير وجب مسايرته.

5- التحفيز الإنساني وعلاقته بالعمل الإداري

الإنسان بوصفه كائن عاقل ومدني، فهو يعيش في محيط تتباين فيه الشخصيات من حيث السلوك، خاصة في الأعمال المهنية الإدارية، بعض من الناس تتوفر فيهم سمات الرغبة والميل نحو أداء العمل بطريقة أحسن بسبب الحماس الزائد بينما بعض الأفراد لا تتوفر فيهم أدنى صفات الحماس، أو الدافعية نحو عمل ما.

إن عامل التحفيز هو الركيزة الأساسية التي تجعل الأفراد يُحاطون بجانب العمل وممارسته إدارياً على أكمل وجه، ويعدّ فريدريك تايلور من الأوائل الذين تحدثوا عن التحفيز، وقد اختلفت التعاريف حول التحفيز، لكن معناه العام يشترك في أنه "مثير يحرّك السلوك الإنساني، ويساعد على توجيهه نحو الأداء المطلوب"، يسعى لتحقيق أهداف سامية لإشباع بعض الاحتياجات عند الأفراد.

تنقسم الحوافز في حد ذاتها إلى أقسام تتوزع وفقاً لمعايير متنوعة أهمها الحوافز المادية التي تحدث عنها تايلور بالحصر، ويقصد بها الحوافز التي تشبع حاجة الفرد مادياً (أكل، شرب، مأوى، ملبس)، وتتمركز من الجانب العملي في الأجور والزيادات والامتيازات والعلاوات، من أجل ضمان استقرار العمل وتحسين الإنتاج والقدرة على تلبية حاجيات الأسرة

(النفقات)، أما الحوافز المعنوية فيقصد بها تقدير الذات الإنسانية (الثناء والتشجيع على الجهد المبذول)، وربطها بالجانب الاجتماعي الذي يعمل على تأسيس منظومة إدارية متطورة بفضل العمل الجماعي التشاركي الناتج عن تماسك العاملين وإتاحة الفرص أمامهم، مما يستدعي تكريمهم بشهادات وأوسمة تعبّر عن مدى إسهاماتهم الإبداعية.

ومن هنا تكون الحوافز مظلة تجمع بين الفرد والجماعة.

تعتبر نظرية ماسلو للحاجات من أهم النظريات التي تصنف الحاجات الإنسانية، عبر مستويات سميت بسلم ماسلو:

أولاً: الحاجات الإنسانية العضوية كالأكل والشرب....

تعتبر حاجات فيزيولوجية تضمن بقاء الفرد واستمراريته في الوجود، حاجة بيولوجية لابد من تأمينها

ثانياً: حاجات الأمن والاستقرار التي تكسب الفرد عدم الخوف أو الشعور بخطر ما يتجه نحوهم، هذا التأمين يكتسح شعور الإنسان لمنح ذاته كلية من أجل العمل أكثر وبطريقة أفضل عطاءً وخدمة.

ثالثاً: حاجات اجتماعية، ذكرنا آنفاً أنَّ الإنسان كائن مدني اجتماعي بطبعه، يحتاج للتواصل مع الآخرين من أجل التجاذب والاندماج والشعور بالانتماء مع الآخر (علاقات إنسانية)، فلابد من الانصهار داخل الجماعة وتكوين علاقة بين الأنا والغير حتى ينجح العمل المنوط بدور معين عند كل فرد من أفراد الجماعة.

رابعاً: حاجات حبّ الذات وهي تسعى لإثبات الوجود والتطلع للأفضل احتراماً وتقديراً، هذه القابلية الذاتية تأتي بعد توفر كل الحاجات السابقة، مضمونها نفسي معنوي نتيجته الوصول لنتائج تقود للإبداع وحب الابتكار.

خامساً: حاجات إدراك تحقيق الذات، وفيها يحتاج الإنسان لإظهار إنجازاته وإبداعاته، وتعظيم استخدام مهاراته.

إذن التحفيز درجة عُليا يتمكن من خلالها الإنسان اكتساب محطات سيكولوجية تثيره لأعمال ذات قابلية كبيرة فتحدث استجابة امتيازية تكون الورقة الرابحة فيها هي صفقة النجاح والتنمية البشرية ذات الرؤية المستقبلية المشرقة، تعمل على التحدّي، وروح المبادرة وعدم الاستسلام وحبّ زيادة الإنتاج لتطوير الاقتصاد الذي مصدره الإنسان، فبحكم عيشه في الطبيعة، هو من صنّاع التصدي والتحدي لاستخراج المادة الخام وتحويلها بفعل عامل التحفيز لمادة مستهلكة تخدم الجميع.

6- احترام التنوع الثقافي وإقصاء النمطية

يتشكل العالم الذي نعيش فيه من مجموعات ثقافية متنوعة، ديناميكية، ليست بالأمر البسيط، تَعقدها ناتج عن التغير في الظروف والمعتقدات والعادات والقيم، تتكوّن من عِرق وطبقة اجتماعية، ومعتقدات دينية تخلق لنا ما يسمى بالتنوع الثقافي.

لكل دولة في رقعة وإقليم جغرافي معين ثقافتها التي تتميز عن بقية الثقافات الأخرى، فلكل بلد طبيعته الخاصة وتقاليده التي ترعرع عليها وروابطه الأسرية التي نشأ عليها، ونمط سياستها وأيديولوجيتها التي تنظم علاقاتها القانونية بين الحاكم والمحكوم، علاوة على طريقة المأكل والملبس والتي تدخل في التقاليد الاجتماعية والتاريخية، وكذا البنايات العمرانية، والتاريخ يكوّن هوية الأمة ومن أبرز عناصر الهوية اللغة التي تعتبر الوسيلة التواصلية للتعبير عن الحاجيات كما قال الجرجاني: "اللغة هي ما يعبر به كل قوم عن أغراضهم".
المعتقدات الدينية تبرز من خلال الطقوس الموروثة وطريقة التعبير عن مصادر الإيمان، فالثقافة هي مزيج من هذه الأفكار، وتبقى الإشكالية المطروحة تغوص نحو إمكانية تقبل الفرد لثقافة أخرى ومدى استجابته لها.

فتحت لنا التكنولوجيا عالماً أحدث طفرة نوعية جعلت من الإنسان آلة تتجه يميناً ويساراً، لاقتحام ثقافة مغايرة عن ثقافته من باب الفضول أحياناً، وأحياناً أخرى التماساً منه للولوج ضمنها رغبة في التغيير وإقصاء الروتين والنمطية.

مادام الإنسان يعيش في واقع متغير، وأضحت التكنولوجيا وسيلة قد فرضت نفسها علينا كان من الضروري عدم التقوقع في ثقافة واحدة والانفتاح الجذري على ثقافات أخرى خاصة من حيث اللغة، فلا ضير من تعلم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية والتركية والروسية والإسبانية.... والتسجيل في دوراتها للتعرف على ثقافات العالم، ونمط تفكيرهم، وعدم الحكم على أي ثقافة تجهلها دون خوض التجربة في معرفتها... بسبب أحكام قبلية وتصورات مسبقة لا تستند على أي دليل أو حقيقة علمية، سوى ما نسمعه من الطرف الآخر والذي قد يحتكم على خلفيات تنادي بالانقياد التام للتقاليد السابقة، حتى وإن كانت عبارة عن خرافات لا علاقة لها بالواقع.

تطوير الذات أهم حلقة من حلقات استيعاب ضرورة الاختلاف في الأرض بين الأفراد والمجتمعات، وتقبل هذا الاختلاف يمكّن الشخص من معرفة ذاته وتقبل غيره، فتقدير الذات يجعلها تسعى رغبة منها في اكتشاف ذاتها والارتقاء بها تقديراً من أجل التعامل مع الآخر الذي يعد علة لتشكل الثقافات.

إمكانية تبادل الثقافات وحضور ملتقيات ومهرجانات من شأنها توطيد العلاقات بين المجتمعات لمعرفة تراثها وتقاليدها وأعرافها، كاللباس وطريقة الاحتفالات، كيفية استقبال الضيوف، التعبير عن الفرح، ممارسة الهوايات، الأكلات وأنواع الأطعمة... وغيرها.

كوكتيل ثقافي متنوع يعيشه العالم، لا بأس من اكتسابه في حدود التعاليم الدينية مالم يمس بعقيدتنا، أو يغزونا بمنطلقات فكرية نووية مخدوعة... فكيف يمكن تقبل ثقافة الغرب إن عُلم أنها تحوي على دسائس وأفكار إلحادية تجنباً للنمطية وآلية التقاليد؟

لابد من إحداث نقلة تحوّلنا من الثقافة إلى التربية... فالتربية هي عماد التطور والبنيان، وضرورة فردية من ضرورات الإنسان، تكوّن شخصيته وتصقل مهاراته وثقافته ليتفاعل ويتناسق مع المجتمع، فالتربية تسعى بالإنسان إلى طريق الكمال بهدف نقل المعارف وتنمية جوانب شخصيته.

التربية جانب مهم لابد من مراعاته فهي تؤهل الفرد دينياً ودنيوياً، وتجعله متكيفاً مع البيئة المحيطة به، تحافظ على الأنماط السلوكية المكتسبة من جيل إلى آخر، فتسعى للمحافظة على العادات والتقاليد، وبأسلوب علمي تمكن الفرد من الإعداد العقلي وتقصي الحقائق.

التربية السليمة لا تجعل من الفرد عبداً مستهلكاً لثقافات أخرى غير مناسبة لكنها تجعله ينتقي الأحسن منها، وإذا تشكلت التربية مع الثقافة تكونت حضارة تواكب التقدم العلمي والرفاهية الاجتماعية والاقتصادية

باستراتيجية عصرية تجعلنا ننهل المفيد من المعرفة والعلم ونمط التفكير طمعاً في نشوء كوادر من مختلف المجالات.

7- الاستثمار في الإنسان المعاصر

إن الثورة التكنولوجية والتقدم الهائل الذي نشهده، لابد أن يجعل من الوطن العربي والإسلامي من أَخَذة ونَهَلة عناصر هذه الثورة، حتى لا يبقى خارجها مثلما هو مشاهد الآن، وأحسن أشكال الثورة التي يمكن توجيهها لتحقيق أهداف الأمة هي رأس المال البشري الذي يتشكل من قدرات ومواهب وخبرات ومهارات في جميع المجالات، اقتصادياً واجتماعياً، تنموياً وتعليمياً. أغلى ما تملكه أي دولة ليس شركاتها ومبانيها ومصانعها بل موظفيها خصوصاً منهم المبدعين، فهم رأس مال المصانع والشركات، لذلك كان لابد من وضع تخطيطات واستراتيجيات لتطوير الموارد البشرية، واستغلالها في أحسن وجه تستطيع تقديمه من خلال أفكار مبدعة تقود لسد حاجيات أمتها ودولتها.

الأخذ يلزم منه العطاء، والثورة الحقيقية تبدأ من الذات، ثورة تطوير الذات وتغيير المفاهيم، والتلقائية في العمل وسوء التخطيط والتنظيم ينجر عنه سوء الأحوال وعدم التقدم والبقاء في بؤرة التخلف والمثل المشهور يقول: "إن كنت غير مرتاح لشراء شيء ما لمدة عشرة أعوام، فلا تشتريه لعشرة دقائق".

لصناعة المستقبل المشرق لابد من الاهتمام بالعقول والأفكار الخلاّقة، فالفكر البشري أهم من موارد الأرض الباطنية، وهذا ما يسمى بالاستثمار في العنصر البشري.

فالإنسان يلزمه أن يكون مهندساً في بناء مستقبله دون الخوض في غمار الماضي، والتغيير في بدايته يكون محرق ومتعب لكن في النهاية مشرق ومريح.

سنغافورة واليابان وكوريا الجنوبية وسويسرا ماهي إلا دول صغيرة أشبه بالدولة المدينة، ومع ذلك تصنف من أكبر الدول في المجال الاقتصادي وتحتل مكانة مرموقة من بين أغنى الدول في العالم، بالرغم من عدم امتلاكها لموارد طبيعية كما هو الحال مع الدول العربية التي تزخر بالثروات الطبيعية، فالمعادن والبترول الموجود بدول أفريقيا قاطبة يساويه في دول أوروبا الربع وربما أقل، ومع ذلك تفوقنا تطوراً ورقياً.... ومنه نستنتج أن الموارد الطبيعية ليست المقياس للتحضر والازدهار بقدر قيمة الإنسان وعقله المفكر.

يقول مالك بن نبي: "ليس الاقتصاد قضية بنك وتشييد مصانع، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات"، وبذلك فإن الإنسان هو صمام الأمان للتغيير والإبداع والإنتاج، فنحن بحاجة ماسة لبناء الرجال قبل بناء المصانع والأبنية والعمران المنمّق، وسيرة النبي صلى

الله عليه وسلم خير دليل، فقد بنى رجالاً قبل أن يبني عمراناً وحملوا رسالته من بعده، تربوياً وأخلاقياً.

يلزم من الأمة العربية والإسلامية أن تحدث طفرة تدريجية ولا تقف على الأطلال تمجد الماضي، فلكل زمن رجاله، ليس بالأمر الكبير الذي يجعلهم متقاعسين عن العمل والبقاء في كهف الاستهلاك، إلى متى هذ الأوضاع التي يندى لها الجبين من بلدان تمتلك ثروات طبيعية وثروات بشرية لا يستهان بها!!!.

ثرواتنا البشرية عبارة عن كفاءات في مختلف المجالات، لم تستطع أن تبدع مادياً لقلة التشجيع والتحفيز وعدم توفير الوسائل، بينما لاقت هذه الرؤوس الثرية إقبالاً وإطراءً من دول كبرى عرفت كيف تستثمر فيهم إيجاباً من أجل أوطانهم.

اليابان دولة تكنولوجية تعتمد على التقنية بامتياز، مساحتها حوالي **377**كم، أول مصدّر للسفن والسيارات، والآلات الفلاحية، مختصة بالصناعة الميكانيكية و الروبوتيك والآلات البصرية والسمعية، وإنشاء مركبات جيوجرارية وكهرومائية نظراً لبنيتها التحتية المعروفة بكثرة الجزر حاولت مواكبة التطور فأنشأت الجسور والمطارات والموانئ استغلالاً للمساحات الواسعة من البحر، هذا الاستغلال يسمى استغلال عقلاني للطاقة، كبديل عن الغاز والبترول، وكل هذا بفضل تطوير التعليم والاهتمام به، وتزويد المجمعات التعليمية ومراكز البحث بكافة الوسائل

اللازمة، الاعتماد على البحوث ودراستها ثم تنفيذها ميدانياً وواقعياً هو الصفارة والمؤشر الذي كوّن هذه الترسانة التكنولوجية.

اليابان قوة عظمى تحتوي على نسبة كبيرة من المتعلمين النشطين .

عودة لسويسرا التي تعد أكثر البلدان استقراراً من الناحية الاقتصادية، والتي تعتبر ملاذاً آمناً للمستثمرين، على الرغم من مساحتها المحدودة، وعدم توفرها على المادة الخام، سويسرا موطن للشركات متعددة الجنسيات، كما أنها تتربع على عرش الابتكار والإبداع نظراً لتطور السوق وبراءات الاختراع وفقاً لمؤشرات المنظمة العالمية للملكية الفكرية، وذلك كله بفضل معاهد البحوث التي أصبحت جامعاتها تحتل المراتب الأولى؛ بحيث أن الجامعات السويسرية منخرطة في مشروعات ضخمة مثل منتجع الابتكار في مدينة فريبورغ، والذي يهدف لخلق **200**وظيفة واجتماع الثروة البشرية لخلق فضاء خبراتي في مجال تنشيط العمل للخروج بمشاريع ذات رؤية مشرّفة.

وها هي سنغافورة تدخل حيز التطور وتتغلب على الماضي من خلال إيجاد حلول للمشاكل الاقتصادية التي أرهقتهم وذلك بفضل تشجيع الاستثمار البشري ثم المادي، مما أدى لوجود نهضة اقتصادية وانفتاح سريع لهذه الدولة وأضحت منافسة لبقية الدول.

ومن أهم مقومات هذه الدولة الصغيرة التي أدت لنهضتها: القطاع التعليمي الذي ينص على تجميع الأطفال ذوي القدرات المتماثلة معاً، وتوجيه الأطفال للمجال الذي يناسب مهاراتهم لتعزيزها.

دون نسيان المبرر الأخلاقي، الذي يعد عاملاً مهماً للاستثمار، فالنبي صلى الله عليه وسلم استثمر في رجاله، وقادوا الأمة بعدلهم وقيمهم الخلقية وليس بأسلحتهم.

وبالتالي إن الاستثمار في رأس المال البشري هو أعظم استثمار ننشده، وأكثره أهمية لتحقيق نمو اقتصادي مستدام لذلك لابد من جعله نقطة انطلاق ضرورية لبناء استراتيجية شاملة ومتوازنة.

الإنسان هو ركيزة التنمية وعجلة التقدم، فهو الذي اخترع واكتشف وغزا الكواكب، هو ذلك المبدع الذي فاق بقية الموجودات بعقله وقدراته، لكنه يحتاج لأرضية تمهّد له الطريق لآفاق واسعة تمكنه من العمل الجاد وهذا ما نطمح لوجوده ببلداننا العربية بالأخص، هناك دول لم تكن معروفة بخريطة العالم ومع ذلك فرضت نفسها مؤخراً، مثل سنغافورة وماليزيا وهونك كونغ... وفاجأت العالم بغزو صناعي ساد بالأسواق الصناعية كل هذا بفضل الاهتمام بالعنصر البشري وتوفير أساليب التدريب والتعليم الذي يساير التغيير المستمر والأهم من ذلك الاهتمام بالقيم والأخلاق التي تعد رأس الفضائل وبوادر النجاح والتقدم والانتاج وفقاً لسلم تنظيمي يبني الشخصية المنضبطة المسؤولة والعمل على تشجيع العمل الجماعي وإدارة

الفريق الواحد.. أخلاقيات يكتسبها الطلبة في المدارس والبيوت، منها ما هو أمر نظامي تسلط فيه العقوبات ومحاسبة المخالفين ومنها ما هو ترغيب للعمل الدؤوب والذي يحوي مكافآت للجادين.

كل شيء يبدأ مرتين، مرة في العقل ومرة على أرض الواقع. والتجارة الرابحة هي الاستثمار في الإنسان.

8- أنسنة السلوك البشري في ظل التحديات المعاصرة

السلوك البشري كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط، سواء كان خارجي فيزيولوجي يمكن ملاحظته، أو داخلي يتمثل في نمط التفكير.

وراء كل سلوك دوافع معينة، فلا يأتي من تلقاء نفسه دون منبهات ومثيرات، وقد عُني السلوك من طرف علماء النفس، لدراسة أفعال الفرد أو الجماعات وابتُكرت طريقة منهجية علمية لفهم أنماط السلوكيات لدى الشخصيات من طرف علم النفس السلوكي، وتبنّى هذا المنهج مجموعة من علماء النفس بغية علاج وتعديل السلوكيات، بعد تفكيكه وتحليله، ثم استخدام عملية التنبؤ من أجل التحكم فيه وإمكانية تغييره، حتى يساعد الفرد على اكتساب سلوكيات جديدة تدفعه للتكيف والتأقلم مع عالمه وبيئته ومحيطه، تخلصاً من السلوكيات الخاطئة غير المرغوب فيها، علاوة على التخلص من كل المشاعر السلبية، كالخوف والذعر والغضب والقلق والاكتئاب والصراع.

كل شخص له صفات تعبّر عما يهواه ويثيره ويحبه، وفي المقابل ما يشمئز منه ويكرهه، وهذا ما يحدد طبيعة ونوعية السلوكيات لدى الأفراد، فالسلوك الاستجابي ما هو إلا انعكاس لمثير قبلي، أما السلوك الإجرائي فطبيعته إرادية ناتجة عن عوامل اجتماعية تحكمت فيه كردة فعل.

أبعاده تتراوح ما بين أخلاقية تشكل جزء من سلوك الفرد كقيم روحية، واجتماعية تتأثر بالأعراف والتقاليد، وبشرية صادرة عن الجهاز العصبي، تحت تأطير زمكاني.

ظلت مشكلة الدوافع المقرونة بالعلة والمعلول من أهم انشغالات العلماء والمفكرين والفلاسفة منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، البعض يرى في الإنسان الأنانية والشر وحبّ التملك، والبعض الآخر يرى فيه مصدر الخيرية والعقلنة... أحدهم يراه قوة غائية والثاني يراه طاقة حيوية، والثالث يرى أن سلوكياته نتاج الطاقة الجنسية اللاشعورية، مما يوحي بوجود علاقة بين السلوك عند الإنسان والسلوك عند الحيوان، يصادرها الجانب الخارجي الفيسيولوجي أو العضوي الحركي، أبرزها ردة الفعل أثناء مواجهة الخطر التي تتشكل عينياً بوضعية أقل ما يقال عنها موحدة ومشتركة يثيرها الغضب والفوضى وينتح عنها الصراع والقتل والعداوة.

إراقة الدماء عنصر يشترك فيه الإنسان والحيوان معاً، لكن لا يمكن تعميم هذا العنصر إلا عند فئة ترى أن الإنسان عدواني وشرير بطبعه... وهذا القول يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه، كما تُناتج الإبل من بهيمة جمعاء ".، وإلا كان ضرباً بعنصر التوحيد والفطرة النقية السليمة التي ولد عليها كل فرد من الأفراد.

لكن ما هو ملاحظ عند الإنسان المعاصر هو بعض الحالات الانفعالية التي يتشابه فيها مع الحيوان كالانتباه وإدراك الخطر، لتبرز العلامة المفارقة والسمة الخاصة كمعارض يميز الإنسان عن الحيوان وهما التفكير والتذكر، وهذا ما يسمى بأنسنة السلوك، والتي يختص بها الإنسان دون غيره من الكائنات، لذلك لابد من أن يسيطر على هذا الإنسان السلوك الأخلاقي والاجتماعي معاً، لإعادة التوازن الإنساني، ويبقى التنظيم العقلي هو المحرك للحس الاجتماعي والأخلاقي.

مظاهر عديدة نشهدها بالواقع تتمثل في ممارسة العنف بنوعيه المادي الجسدي، والمعنوي اللفظي... خصوصاً عند الاختلاف في الآراء وما دمنا مواكبين للعولمة فإن العالم الافتراضي المجسد في وسائل التواصل الاجتماعي خير نموذج ومثال، فالكل يدافع عن رأيه بالصواب معتبراً رأي الآخر عين الخطأ والزلل... إشباعاً لرغبته الأيديولوجية المذهبية والفكرية، وهو بحد ذاته عودة للغريزة الحيوانية التي تقابل كل هجوم بأسلحة فتاكة، هذا العنف الموجه يستخدمه الإنسان، في صور متعددة كالاغتصاب والقتل والضرب.. وهذا عبارة عن رواسب تشكلت في المجتمعات البعض منها ذو سيكولوجية أسرية، ومنها ما هو بيئي مدرسي، أو سياسي أو حتى اقتصادي وإعلامي، ثقافي وديني.

بقي الإنسان أكثر ميلاً للحيونة والافتراس وهو أحد أسباب كثرة الجريمة ليس في بلداننا العربية فقط، بل شاملة العالم ككل.

باعتبار أن العنف ظاهرة اجتماعية وإنسانية وسلوك سلبي يضغط على إرادة الآخرين، كان لزاماً معرفة السبب والمسبب لمعالجة وتغيير هذا السلوك والبحث فيه دراسة وتحليلاً بطريقة قياسية موضوعية، كثرت أحوال العنف في الأسرة بين الزوجين وحتى بين الآباء والأبناء، وقد ترجع علة هذه الممارسة لسيكولوجية المستخدم له وتبعات تربيته وتنشئته الاجتماعية... فمن وجد أباه يعامل أمه كملكة سيضطر لمعاملة زوجته كملكة أو أميرة لأن هذا السلوك ترعرع عليه ونشأ به فلا مناص لتغييره لأنه متجذر منذ الطفولة، ومرحلة الطفولة نفسياً هي أساس تكوين الشخصية الحقيقية.

العنف المدرسي بشقيه سواء على المعلمين أو بين الطلبة، أو حتى في الممتلكات العامة للمدرسة وتخريبها، والتعدي على لوائحها، وممارسة الغش الجماعي وحمل وسائل ممنوعة داخل الحرم المدرسي، كل هذا يستدعي منا معرفة الأسباب لتحديد القوانين حول الظاهرة وعلاقتها... تجتمع فيها علل اجتماعية ونفسية بالدرجة الأولى فالانفصال بين الزوجين يهدد كيان الأسرة ويقطع سبل الأمان والعيش براحة وطمأنينة، الزواج سكينة ورحمة فإن فقد تماسكه تفككت معالمه وارتخت نحو السالب. علاوة على الفقر الذي يهدد الكثير من العائلات العربية والسكنات الهشة التي تجعل سيكولوجية الفرد هشة من الداخل، والضعف سبيله العنف .

من الجانب الديني عنف في الفتوى مشاهد يسمى بالعنف الخفي المبطن كإصدار فتاوى القتل والجهاد ضد المسلمين، وديننا دين يسر ورحمة. إضافة للإقناع القسري بالقوة للانصياع لمذهب ديني معين أو التشدد نحو فكر ما... صراع شبيه بالأمراض العقلية، والدين واضح في مبادئه صالح لكل زمان ومكان، لا تعترضه تغيرات إلا فرعياً ...

التحضر دعا إليه الإسلام ونبذ التفرقة والعنف وأسّس لمبدأ التسامح والمصالحة إلا ما كان نافذاً نحو الكبائر والإخلال بالعقيدة.

السلوك الناضج هو القائم على الأخلاق والعقيدة والتمسك بهما هو عين العقل والصواب، والاتصاف بالسلوكيات السلبية في الجانب الديني هو غريزة حيوانية سيطرت على صاحبها وجعلته كالبهيمة ينصاع لراعٍ بدون غنم.

عنف سياسي يتمثل في استخدام اللقب للمصالح الشخصية، وتعمد إيذاء الغير من المخالفين.... بعداً عن الدين الحنيف والشريعة الغرّاء والإيمان اللازم التقيد به من طرف كل مسلم.

وسائل إعلامية تبث سموم ثقافية من خلال الرسوم والأفلام مبعثها العنف والانحلال، كل هذا قادت إليه العولمة في شقها السلبي.....

حقيقة عالمية تؤرخ للسلوك العدواني في الآونة الأخيرة، محاكم تعج بقضايا العنف والقتل والإجرام، بالرغم من وجود عناصر الأمن، فهل هو ندرة في الأمن أو عدم قيام بالواجب أو كثرة العدوان والمجرمين؟

تعديل هذه السلوكيات يمر بخطوات، لإعادة تأهيل وتوجيه الأفراد ومساعدتهم على التخلي عن السلوكيات السلبية، وتطويرها نحو الأفضل بالاعتماد على أسلوب ينسجم مع المتطلبات الحياتية والاتجاهات التي تسير نحو تعديل السلوك الإنساني، وكل هذا يعتمد على التقويم بحسب النظرية السلوكية من خلال متابعة السلوك لتحديده بشكل واضح، ثم تحليل أحداثه، ومعرفة محيط صاحب السلوك وبيئته، ثم تنفيذ الخطة و تقويمها فان أعطت نتيجة إيجابية تم تعميمها .

طريقة العقاب والتعزيز تتباين بحسب المواقف، لكنها طريقة فعالة، كانت موجودة سابقاً في ظل الرؤية الاسلامية، التي تعتبر أفضل نظرية تربوية دون منازع، كيف لا وقد استلهمت من وحي لا يعتريه الباطل، ومن خلفه تنزيل من حميد مجيد.

ولايزال المنهج الاسلامي يحمل الكثير من الفروض التي يمكن استنباطها، والعقاب أحد الوسائل التربوية التي أحيطت بضوابط معينة، حين غياب القدوة، والموعظة والصبر، ولابد من أن يستخدم العقاب كعلاج وليس قمع، مع ضرورة معرفة من ينطبق عليهم فهو غير صالح للجميع.

والتصور الإسلامي وسطي للإنسان يحاول دوماً تقويم أخلاقه وطباعه، وتوثيق علاقته بخالقه.

والمنهج القرآني وسط بين استخدام العقاب إذا كان علاجاً، والتعزيز والإثابة إذا كانت ترغيباً.

وبالتالي فإن أنسنة السلوك تحتاج للاستنجاد بتطبيق المنهج الإسلامي الذي يراعي الروح والجسد معاً.

ففي ظلّ التحديات المعاصرة والتكنولوجية التي سمحت بابتكار أدوات جديدة للإحاطة بالسلوكيات السلبية كان لزاماً البحث عن سبل وطرق لمعالجة ما يترتب من مساوئ تضر الفرد المسلم بالدرجة الأولى، كونها خالية من الأخلاق التي حث عليها الإسلام، فالعودة للأصل فضيلة، والتقيد بمعالم المنهج السلوكي التربوي الإسلامي أحسن طريقة.

9- النفس البشرية بين الوعي واللاوعي

الإنسان ليس كائناً بيولوجياً فحسب، فهو يتمثل للسيكولوجية بدرجة أكبر، كحالة باطنية ترمز وتدل على الذات المدركة، مما يجعله يقترن بعقله الظاهر أحياناً، ويتدرج نحو عقله الباطن أحياناً أخرى، فهل العلاقة التي تربط الوعي باللاوعي يمكن أن تسيطر على النفس البشرية؟

التفكير عند الإنسان خاصية ملازمة له لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تشتغل الغريزة مكانها بصفتها عامل تلقائي نمطي آلي يخلو من الوعي، مما يولي أهمية كبرى لجانب الوعي وسيطرته على سلوكياتنا وتصرفاتنا.

لكن كيف يمكن تفسير خبايا تسكن داخل النفس كمكبوتات تلعب دورها في العقل الباطن وتسيطر على مختلف أفعالنا وتقحم إرادتنا فعلياً دون إدراك؟

هذا يوحي بوجود علاقة ترابطية بين الوعي واللاوعي، فما يخزن باطنياً ما هو إلا نتيجة حتمية لرغبات وميولات واهتمامات كانت موجودة ظاهرياً، فلم تتمثل بالواقع لتتقوقع بدائرة وحيز اللاشعور من خلال أشكال ومظاهر متباينة.

العقل الباطن أو ما يسمى باللاوعي هو برنامج مليء بمذكرات ومعلومات تحتل مساحة واسعة لا تقارن بها درجة الوعي والعقل الظاهر.

النفس عبارة عن خلجات وخواطر وأنشطة وفاعليات يصدر عنها ما يتعايش معه الإنسان كبنية تكوّن شخصيته وتؤطرها تحت مركزية ومظلة العقل بشِقيه.

10- الإنترنت وازدحام المبادئ والقيم الأسرية داخل المجتمعات العربية

شغلت الإنترنت حيّزاً واسعاً ومكاناً شاسعاً، لا يستهان به، فقد أضحت اللبنة والمشرب الذي يعود إليه الأفراد بمختلف مستوياتهم المعرفية والمهنية والطبقية، واعتبروه النموذج الأمثل لتحقيق غايات افتراضية نادراً ما تتراءى بالواقع، أو تجسيد أحلام ومغريات لم تتكلّل حقيقة بالميدان فتكون النت الوسيلة الوحيدة والنافذة الأولى التي يطل بها على عالمه المهووس به، تخللّتها عيوبٌ عادت على المجتمع الجزائري في خليته الأولى بمجهر سلبي، خصوصاً أنها سلاح ذو حدين انسلخت منها قيم تمثل الهوية المحافظة للأسر، وممارسة الانحلال الخلقي بكافة أشكاله واندثرت معه معالم الاخلاق كسلوكيات معيارية وأصبح يتحكم فيها ديدن العرف التكنولوجي بين أساور الجيل الجديد ومخالفة العادات والتقاليد والمبادئ المغروسة سابقاً وانتشرت بكثافة كل أساليب النطحة اللا أخلاقية من تميّع وتعاطي للمخدرات وانتحال الشخصيات والكذب والقذف والبهتان وهدم الأسر وتفكيكها بالانفصال والطلاق عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي ساهمت في تغيير وجهات نظرهم واتباع كل مستجدّ بطريقة تقليدية غربية بعيدة عن الإسلام

_كيف تحول النت من وسيط للتواصل الاجتماعي إلى إشكال اجتماعي يسبب الضرر للأفراد والأسر؟

ما زاد الطين بلّة التحول العميق بين أروقة وسائل التواصل الاجتماعي بتنوع رموزه سواء الفيسبوك أو الانستغرام... ومن آثاره السلبية الانغماس والفتور غير الطبيعي الممزوج بوابل من اللا أخلاقيات الاجتماعية والتي أوصلت الكثير لفتح قضايا قانونية عبر المحاكم.

فقد حدث خلل مسّ الأسرة بأكملها وأحدث قطيعة متلازمة بين الأقارب والأهل فما كان يعاش سابقاً من زيارة وتراحم ومودة ولقاء على مائدة الصلح والبركة، أصبح الآن مجرد كتابات ومنشورات يستدعيها الزمن بأبعاده التاريخية فحسب، ليس في جو من العائلة البعيدة لكن بالأحرى حتى داخل الأسرة النواة المصغرة والتي انتقلت فيها روحانية العواطف السيكولوجية إلى غلق أبواب الغرف للدردشة وإهمال اجتماعي.

_ماهي ثقافة الإنسان العربي تجاه التكنولوجيا؟

الإنسان العربي تتغير وجهة نظره بحسب الأشخاص، هناك من يعتبر التكنولوجيا سلاح هدّام للبيوت، وهناك من يستبعد وجود النت والتقنية لقلة الحاجة، وهناك من يمتلك درجة كبيرة من الوعي، ممارسته للتكنولوجيا لا تتعدى كونها قد تكون إيجابية في حالات وسلبية في حالات أخرى، لكن الأغلبية من صنف المراهقين والشباب أصبحت

نظرتهم للتكنولوجيا غذاء يطعم قلوبهم التي ابتعدت عن الله وضعف الوازع الديني لديهم ووقعوا في الرذيلة بمختلف أشكالها وحرمتهم من التركيز في ميدان التعلم والمعرفة حتى أصبحت هاجسهم وظلهم الذي لا يفارقهم طوال الوقت.

فماهي أنجع الحلول لتجاوز سلبيات الشبكة العنكبوتية؟

العولمة بصفة عامة سلاح ذو حدين قد تكون نعمة إذا أحسن المرء استعمالها، وقد تكون نقمة إذا وقع الفرد فيها فريسة تبعد القريب وتصنع الجفاء وتفرّق بين الأحباب، وتفتح باب الإدمان وكاحتياط منها يجب تقديم دروس الوعي الكافي لاستدراك أخطارها والتنبيه في المساجد من طرف الأئمة عبر المنابر، والعودة لكتاب الله، ومعرفة كيفية استثمارها فيما ينفع، والرقابة الأسرية التي تتمثل في الاهتمام والمراقبة من طرف الأولياء لأبنائهم.

11- فلسفة الطب والعلاج النفسي

إنّ المرض النفسي يطلق على اضطرابات يعانيها الشخص تؤثر على مزاجه وتفكيره وسلوكه، أبرزها اضطراب القلق، الاكتئاب، الفصام.... والإجهاد الكبير والمستمر لهذه الأمراض يؤدي لخلل على مستوى الصحة العقلية.
ولا يخفى علينا آثار الأمراض النفسية سواء على المريض نفسه أو في علاقاته مع الآخرين، مما يجعل الاضطراب أعمق وذو تأثير سلبي في التعاملات التي تعتبر من طبيعة الكائن البشري.
بعض الأعراض التي تخص هذا الجانب من المرض قد تظهر على شكل وصورة مشاكل عضوية كالشعور بالصداع وألم بالرأس، آلام المعدة، ألم الضرس...

كثيراً ما يتم وصف بعض الأشخاص من حولنا بكونهم أشخاص معقدين ومضطربين نفسياً وذلك نظراً لبعض التصرفات التي يقومون بها أو وجود بعض المتناقضات في حياتهم، فما هو التعريف الحقيقي للعقدة النفسية ومن أين تأتي وتتشكل هذه العقد؟

تعرّف العقدة النفسية بأنها فكرة أو مجموعة من الأفكار المترابطة والتي يكتبها الإنسان جزئياً أو كلياً، وتكون هذه الأفكار مترابطة بانفعال

معين، كما أنها تكون في صراع مع مجموعة من الأفكار الأخرى المقبولة من جانب الفرد، وتوصف بكونها استعداد لاشعوري لا ينتبه الفرد إلى وجودها ولا يعرف منشأها أو أصلها ويكون كل ما يشعر به هو آثار هذه العقدة في سلوكه وشعوره وجسمه، ومن هذه الآثار القلق الذي يغشاه أو الشكوك التي تنتابه واضطرابات جسمية نفسية المنشأ. والأشخاص الذين يشعرون بوجود عقدة ما لديهم فذلك نتيجة لما يقوله الناس عنهم.

لذلك يسعى الأفراد الذين يعانون هذه الاضطرابات أو ذويهم لعلاجهم من أجل تخطي هذه المشاكل المستعصية، وتعد الفلسفة أفضل أسلوب حياة بالرغم من السمعة التي تكونت حولها والتهميش الذي عانته من البعض حينما اعتبروها مجرد إنتاج عقيم يخوض في الجدل واللا لزوم، وشدة التعقيد والغموض، لكنها أبعد من ذلك فهي تطوّر الأفكار التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية ليستمد منها الحكمة وتقوده للإبداع في مختلف المجالات، وعلم النفس يعد جزءاً لا يتجزأ من الفلسفة والعلوم الانسانية، فهي مصدر التنوير وتقديم الغذاء العلاجي باعتبارها تهتم بالعقل وتنعش جانب التفكير، تقول الفيلسوفة آنا أرندت: اكتشاف الحقيقة مهمة العلم، واكتشاف المعنى مهمة الفلسفة".

لم تعرف الأزمنة القديمة الطب النفسي بقدر ما هو موجود في العصر الحديث، سقراط كان يدعى طبيب الروح، وكان يعتني بأمراض النفس

والروح، وكانت مهمة الفلاسفة آنذاك علاج الناس من الأفكار المسبقة المليئة بالمخاوف وتعليمهم القناعة والحكمة وراحة البال والفضيلة.

أفلاطون اعتبر الروح البشرية ثلاثية التكوين تتألف من العقل والنفس والرغبة، وتوجد على التوالي في الرأس والقلب والكبد، بحسب دراسة "أهونين"، التي تدرس علاقة الفلسفة بالطب القديم.

على عكس أفلاطون يذهب أرسطو للقول بأن القلب أول عضو ينمو في الجنين ويمنحه دماً وحرارة، ووفقاً لذلك فإن الاضطرابات العقلية تحدث على مستوى منطقة القلب، وعلاج هذه الأمراض يكون عن طريق الأدوية والعقاقير عبر تطهير الجسم مما يدل على الترابط القوي بين الجسم والروح عند الفلاسفة القدامى.

وبالتالي كانت الأمراض العقلية عند الفلاسفة القدامى اضطرابات جسدية عضوية تحدث على مستوى الدماغ أو القلب أو الرأس.

في الفترة المعاصرة تطور العلاج النفسي كثيراً ولم يعد معتمداً على الأدوية النفسية فقط والتي ترافقها أعراض جانبية سلبية وأصبح التركيز الأكبر على التحدث مع المريض، يقدم فيها الطبيب النفسي آليات علاجية تتمثل في النصائح والتوعية لمساعدته للخروج منها وخلق تغييرات جذرية بحياته وأسلوب تفكيره.

يعد العلاج السلوكي المعرفي أكثر أساليب العلاج النفسي انتشاراً، وأكثرها فعالية في علاج الاضطرابات النفسية كالقلق والوسواس القهري كما هو

ملاحظ استقرائياً، يقوم على قاعدة ومبدأ تحديد المشكلات النفسية والأفكار الخاطئة غير النافعة، والتي يظن المرضى أنها تساعدهم على تجاوز مشاكلهم وتخفيفها، وتعليمهم استراتيجيات أخرى صحيحة يتخطون بها هذه الأمراض، بالمواجهة بدل التجنب، واستخدام طريقة تهدئة العقل والاسترخاء بدل كثرة إشغاله بالأمور غير المفيدة والتراكمية...

علاوة على تدريب وتعليم المرضى الاعتماد على أنفسهم في تجاوز الاضطرابات مما يسهل عملية العلاج المبكر.

طريقة العلاج الإنساني، من أبرز الطرق الإيجابية، فهي تُعنى بتحسين رؤية الشخص للعالم وإظهار الجانب المضيء منه، وتحسين وضعيته وإشعاره بقيمته داخل هذا العالم وتقديم حلول الوصول إلى النجاح، ومساعدته على تكوين شخصية تثق بذاتها وتحترمها، مع تقبل النقد من الآخرين دون اعتباره تنمراً وهذا كله يؤدي به لإقناع نفسه بضرورة تواجده بهذا العالم للكفاح من أجل الوصول للطموح والهدف المنشود.

العلاج النفسي الديناميكي يتشابه نوعاً ما مع التحليل النفسي يعتمد على أن اللاوعي أو العقل الباطن يتأثر بالماضي، ويركز هذا العلاج على مساعدة الشخص على إخراج مكبوتاته، والتعبير عن مشاعره.

أنواع العلاجات النفسية متعددة، وكل طريقة وإيجابياتها وقد تصلح إحداهما على شخص ما، دون الآخر وهكذا....

لذلك كان لابد من تدخل الفلسفة لخدمة قضايا الأمة، وإخراجها من براثين العقد النفسية التي كثرت في الآونة الأخيرة، دعوة لرؤية فلسفية تطبيقية تواكب القرن الحادي وعشرين عموماً، وإحداث تغيير ونقلة نوعية في جوانب الحياة والنظم.

الفلسفة كانت ومازالت أم العلوم، وفروعها التطبيقية في الوقت الحالي دليل قاطع على أهميتها وثمرتها، اهتمت بالأخلاق التي تعتبر أكثر العلوم انتشاراً تحت مسمى فلسفة الأخلاق التطبيقية، تتناول عدة مواضيع أبرزها أخلاقيات الطب.

_لماذا الفلسفة وهل تعتبر بديلاً عن الطب النفسي؟

هناك مشاكل نفسية عديدة سببها الأول التشكيك في معنى الحياة، وإذا ما لجأ هذا المريض لساحة الطب النفسي اكتفى الطبيب بإعطائه أدوية، قد يتعالج ولكن مع مرور الوقت يعاوده المرض، كما أن المشاكل العقلية لا يمكن أن تحل بطريقة عاطفية ولا بيوكيميائية، بل تحتاج لعلاج فلسفي، توماس بوليدنيشك هو في المقام الأول مختص في علم النفس العلاجي، غير أنه بنهاية الثمانينات ثم التسعينات بدأ يتحول تدريجياً إلى الفلسفة، عندما اكتشف ولاحظ تغير أنواع متاعب مرضاه، يقول: "تفطنت اليوم إلى نوعٍ من تعب الذات، لقد فقد الدين والتقاليد تأثيرهما الملزم لدى الناس، وحل محلهما الفراغ، ولم يكن لعلم النفس المرضي إجابات على ذلك، إن حريتنا اليوم مهددة من قبل القمع، بل من قبل التفاهة".

هذا يؤكد أن المجتمع لابد أن يتجه نحو الفلسفة بسبب الفراغ العقلي الذي يدور حول بعض الأشخاص ونفسياتهم، والغاية من كل هذا أن الاستشارات الفلسفية هي إنشاء بديل حتى يعود المعنى للحياة، ولابد للفلسفة أن تقترب من العلاج النفسي. والفيلسوف يستطيع فهم تصور العالم لدى المصاب بالفصام ومساعدته. (الفصام هو اضطراب حاد في الدماغ، يشوه تفكير وطريقة التعبير عن المشاعر ورؤية الواقع لدى المصاب به، ومعلوم أن هذا المرض لا يمكن السيطرة عليه بواسطة العلاجات الدوائية.

(الفلسفة بتعريفها الشامل بحث عن حقيقة الأشياء، لذلك يمكنها مساعدة الطب النفسي دون أن تكون بديلة عنه، لأن هذا الأخير له خبرة في كشف الحالات المرضية، والفيلسوف إن لم تكن له خلفية نفسية لا يمكنه تقديم ما يقدمه الطبيب النفساني، لكنها انطلاقة للعلاج وفهم أسس المشاكل وتقديم حلول لها، لضبط التوازن النفسي.

12- دور المرأة في ميدان التربية والتعليم

إن التماسك البشري لا يحصل دون تعاون ثنائي تفرضه الطبيعة كقانون ثابت ومنظم بهيكلة عامة، تبحث فيه عن سبل الرقي والتطور ومسايرة الواقع، هذا ما نتج عنه مشاركة المرأة للرجل ميدان العمل واقتحام وظائف متعددة كانت في السابق محصورة عند الرجل فقط، مما أثار ردة فعل متباينة بين موافق لذلك ومعارض، لكن المجال الوحيد الذي اتفق حوله عموم وجمهور العامة المهنة النبيلة والشريفة التي من الممكن للمرأة أن تزرع فيها نبتة طيبة وتتماشى مع خصوصيتها الأنثوية وطبيعتها المعطاءة، فما هو دور المرأة في هذا المجال؟ وكيف يمكنها السيطرة على جيل جديد تتحكم فيه الرؤية التكنولوجية؟

ولوج المرأة ساحة التعليم في هذا العصر اكتسح مساحة كبيرة خصوصاً المنطقة العربية، ومن المعلوم أن الأنثى كائن رقيق المشاعر تنبع منه كل أساليب الرأفة والرحمة والعطف والحنان، مما مكنها من دخول عالم تترعرع فيه الطفولة بالصف الابتدائي، محاولة بث الشخصية السامية في نفوس تلاميذها الصغار ومن منا لا يتذكر معلميه فهم القاعدة والاساس الذي تلقينا منه أبجديات الحروف وهمسات الكتابة والمعرفة.

في المتوسط تستطيع الأستاذة تكوين جيل انتقل من مرحلة الطفولة الى مرحلة التمييز الواضح والتغيير المفاجئ بين الأطوار، ويمكن وصفها أصعب مرحلة عند بداية النضج العقلي والبيولوجي والنفسي.

في الثانوي عقلية طارئة جديدة لا تشبه سابقاتها، استحداث جديد والخروج من خشبة القيود سعياً نحو التحرر المبدئي، المراهقة بكل أنماطها يعيشها أساتذة هذا الطور مما يجعل من الأستاذة المرأة أكثر وعياً بحال هذه النوعية من الذكر واستقطابها نحو التفهم وكأنها ترعى أولادها.

إن مهنة التعليم رُبطت كرسالة ربانية للأنبياء الذين اختارهم واصطفاهم من أجل تعليم الناس عقائدهم وخير مثال على ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فكان خير قدوة وأفضل أسوة في هذا المجال، وقد كانت من حكمة الله أن يتخذ الرسول عدة زوجات لتكون منهم عائشة رضي الله عنها البكر الوحيدة فبالرغم من صغر سنها أرادت مشيئة الله أن لا تنجب أولاداً وذلك لتبقى معلمة الفقه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل نشر علمه وأحاديثه، هذه الرسالة انتقلت بعد وفاة نبي الرحمة لمعلمين أبرزهم امرأة وقد صانت الوديعة وبلغتنا ما ورد عن رسولنا وشيمه وسنته اقتداءً.

هذه الرسالة لم تتوقف عند العلم الشرعي لتنتقل نحو العلم الأكاديمي تحمل في طياتها التربية والتعليم معاً، لكن مع جيل أواصره مرتبطة بالتقنية والتطور الجديد والعولمة التي أغرقت كاهل العرب والمسلمين

وأفسدت عقولهم وأشبعتهم بثقافة الغرب نحو نجم لم يسطع إلا في الرذيلة والبذاءة.

أن التحكم في زمام العملية التعلمية حتى وإن كان نسبياً يتماشى مع الشخصية وقوتها لكنه يستقيم بالمرأة أكثر، لأنها تستطيع أن تربي أكثر مما تعلم وذلك سمواً بغريزتها وفطرتها التي خلقت عليها كونها تستطيع الصبر والتغاضي والتنازل، بعكس الرجل العقلاني المنطقي البعيد عن جو العاطفة بالعموم، نرى في المرأة شعاع العطاء أكثر ليس لأنها تجردت من أنوثتها لكن تكليفها بحمل عظيم في وقتنا المعاصر جعلها محل مسؤولية داخل البيت وخارجه وكأنها اكتسبت معالم العقلنة مع العاطفة واستطاعت أن تنفك من العاطفة المطلقة، فلذلك هي أصلح وأقوم لهذا المجال.

المرأة ذات كيان وشخصية عظيمة يمكن أن نحملها نحو سقف القمة عرفاناً بمجهوداتها المبذولة.

13- المراهقة.... والتربية

تعد مرحلة المراهقة من أهم مراحل الحياة الصعبة للمراهق والمربي على حد سواء لأنها تمثل مرحلة انتقالية بين مرحلتين هما مرحلة الطفولة البريئة ومرحلة الشباب والرشد.

يوجد فرق بين المراهقة والبلوغ الذي يمثل اكتمال الغدد والأعضاء الجنسية والجانب النفسي والعقلي والجسدي، وهو جزء من المراهقة التي تمثل نمواً تدريجياً مستمراً متصلاً، يبدأ بالجسم وينتقل إلى الوجدان.

أهم سبيل لعدم مواجهة الخطورة في هذه الفترة الحساسة هو التربية الدينية باعتبارها زورق النجاة للمراهق كي يميز بين الصحيح والخطأ منذ بداياته ولذلك يفضل أن تنشأ علاقة صداقة بين المربي والمراهق لكي تتحقق التربية ويسهل التعامل معه وشرح الأفكار له.

تختلف مرحلة المراهقة بين الجنسين من حيث الوقت فالذكر ليس كالأنثى من الناحية الهرمونية والشكلية والنمو بصورة ممتازة لكلا الجنسين يقتضي التغذية الصحية والابتعاد عن التصرفات الغذائية غير السليمة قدر الإمكان؛ بحيث يحدث أحياناً أن يمتنع المراهق عن الأكل وسبب ذلك مشكلات نفسية على المربي محاولة التعرف عليها واتخاذ الإجراءات المناسبة بشأنها.

ومن أهم المشاكل التي تعترض المراهقين وتعيق التحصيل الدراسي لديهم:

النفور من العمل والنشاط: وذلك بسبب النمو الجسمي السريع مما يبقيه في حالة كسل ويؤثر ذلك على الطالب، حيث لا يكون غبياً لكن نموه العقلي البطيء لا يمكنه من إنجاز واجباته بسرعة. يتم علاج المشكلة بعدم تكليفه بأعمال ذهنية تتطلب التفكير الكثير ومحاولة تذكيره بالمواقف الصعبة والتي مر عليها بنجاح.

التقلب المزاجي: يحدث ذلك بسبب شعوره بالملل من الأنشطة التي كان يقوم بها في الطفولة ومحاولة إيجاد أنشطة أخرى تشبع رغباته وميوله. كطالب يجعله ذلك يشعر بضعف في مهاراته وقلة ثقة بنفسه ويتم التعامل مع هذه المشكلة بتنويع الأنشطة له.

الرفض والعناد: سببه النظام الصارم أو المتساهل من طرف الأبوين وإحساسه بأنه صار كبيراً محاولاً الخروج من بوتقة الاهتمام الزائد. عدم احتواء هذه المشاكل يؤدي به للعنف المدرسي لذلك على الأبوين محاولة كسب ثقته أكثر بالحوار الهادئ والاستماع له.

الغضب: ويكون سببه عادة القدوة السيئة والحساسية الزائدة حيث يصبح عصبياً يمارس الغضب على زملائه ومعلميه.

من حلول هذه المشكلة الرفق في توجيه النقد وتدثيره بالحب اللازم.

نقص الثقة بالنفس: يعود ذلك لتغير هيئته الجسدية والشك في قدراته، فيصبح التلميذ في خوف دائم من الحصول على درجات دراسية قليلة.

يتمثل حل هذه المشكلة في زرع الإيجابية في نفسه من خلال تذكيره بمواطن قوته والاستماع له.

الخجل الزائد: سببه التغيرات الهرمونية والنفسية التي تحصل للمراهق فيصبح التلميذ عاجزاً عن تكوين علاقات في مجتمعه الدراسي وتكوين صداقات مما يسبب العزلة، في هذه المرحلة على المربي سواء الوالدين أو المعلم تشجيعه على النشاطات الاجتماعية كالتطوع وبناء ثقته بنفسه بفتح حوارات معه.

موضوع الجنس: يصبح لدى المراهق رهبة بسبب تطور الأعضاء التناسلية واكتمال البلوغ حيث ينشغل عن الدراسة ويصبح في رحلة ذاتية لاكتشاف نفسه. توعية المراهق وفتح حوارات معه حول موضوع الجنس وشرحه بتبسيط وإشغال وقته بالألعاب المفيدة حل ناجع لجعله يتجاوز الأمر بيسر.

أحلام اليقظة: تعتبر أحلام اليقظة مصدر إشباع لرغبات المراهق لكن الانغماس المفرط فيها يؤدي للسهو والانشغال عن الدراسة، لذلك على المربي الانتباه لهذه النقطة ومحاولة إشراكه بالأنشطة وتوعيته بشرح أحلام اليقظة وتأثيراتها.

موضوع المراهقة صحيح أنه مصطلح حديث لكنه يتماشى مع زمن جديد غير الزمن الماضي، المراهق اليوم أمام تحديات تقنية يسعى جاهداً في هذه الفترة لاستيراد واقتناء كل ما يواجهه ويمثل بالنسبة له مغامرة ومجازفة

بحثاً عن الجديد... لذلك التربية التي تُحمل على عاتق ومسؤولية المربين ليست بالهيّنة نظراً للتغيرات الواقعية التي تطرأ باستمرار.

الاحتواء والتربية السليمة على أسس شرعية هو مفتاح تكوين جيل قيادي تحتاجه الأمة... نحتاج لأمثال صلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح، ولن يكون ذلك إلا بتربية الإنسان العربي والمسلم المعاصر على أبجديات أخلاقية ونماذج تحفيزية تسعى للتنافس والسباق للولوج في أغوار الحقول العالمية.

14- همسات الشوارع

إن الإنسان بوصفه كائن عاقل واجتماعي، فهو مدينٌ باحتواء القيم التربوية ونهل المبادئ الأخلاقية، التي نقلته من العالم الطبيعي إلى العالم المدني السياسي، وانتقت له قوانين وضعية ارتقت به لمرتبة الكائن الحضاري، فهل مستجدات وتحديات العصرنة كبّلته ليبقى موسوماً بالمدنية؟ أم التغيرات الطارئة عصفت بعفويته لينضح ماء التلوث في شوارع اللا أخلاق؟

إن ما يمارسه شباب اليوم من لؤم الأحاديث وبشاعة الأقاويل جعل الوسط الاجتماعي الذي يعيش به يعاني فساد القيم، حيث أصبحت شوارعنا ممتلئة ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً بكلمات نابية يتناقلها الصغار غراراً عن الكبار، وأضحت ملاذهم في الردود وممارسة كل ألوان السب والشتم والعنف اللفظي.

همست شوارعنا التي ربطتنا بها أيام مضت وانقضت (مراحل الطفولة البريئة)، جيل جديد يمتلك عنفوان القبح بمعناه الأصلي فمن المسؤول الحقيقي عن كل هاته التفاهات؟

ثقافتنا وهويتنا الاسلامية ركزت على جانب الأخلاق الحميدة وحثّ عليها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد بُعث رحمة للعالمين ليتمم لنا مكارم الأخلاق، لكن تلك القدوة هضمتها سوء الرقابة والتربية الأسرية، وكأن

وظيفتها تقتصر على النفقة المادية دون التغذية المعنوية، كنا نجوب منذ الصغر المساجد وننتقل عبر مراكز حفظ القرآن لم نساوم يوماً بعضنا على رداءة الألفاظ كانت الكلمة تخرج من أفواهنا نُردع بها تخوفاً من عقاب الله، فشتان بين هذا الجيل وما كنا عليه سابقاً.

العولمة التكنولوجية وأساليب التقنية أقحمت أبناءنا في جو ومناخ معطر بفوح السوء والإباحية وأصبح التنافس اللاأخلاقي الرديء معيار الذكورة والرجولة، هزمتهم ثقافة الغرب بعدم فهمها، غرست فيهم إبراً وحقناً مزودة بالانحلال واندثار القيم، أبعدتهم عن عقيدتهم فاستسلموا لها وفرضوها على أهاليهم وأسرهم، فلا الأسرة أصبحت تأسر أفرادها ولا الآباء تحكموا في أولادهم، تلك السيطرة اختفت واستبدلت بالحرية السلبية.

شوارعنا تنزف خطراً! تحمل عاصفة منبوذة، وزلازلَ مذمومة فيا ليت الرقابة تستيقظ من سباتها.

كيف يمكن بناء إنسان معاصر وتنميته إذا لم يتم إطفاء القبح المعنوي!!، لابد من التركيز على البنية الأسرية باعتبارها النواة والخلية الأولى لبناء المجتمع، فما بني على الصحيح لن يكون باطلاً، الانتقال من الجو الأسري، للمحيط البيئي، أو نقلة الفرد من محيط الشارع للبيت، له تأثير واسع في اكتساب المفاهيم والخبرات، والارتقاء بهاتين المؤسستين هو سلاح الحداثة والمعاصرة ومشروع النهضة والتنمية والحضارة.... مسألة تربية وأخلاق تفرض نفسها علينا حتى تؤَمّن قواعد التطور.

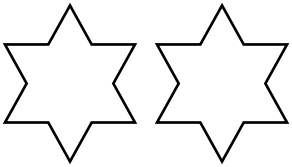

الخـاتـمة

يأتي هذا العمل ثمرة جهد متواصل في مناقشة كافة القضايا التي تخص الفكر العربي محاولين في ذلك تحديد هذه المشكلات ووضع الحلول المناسبة لها من ناحية قانونية ونفسية اجتماعية اقتصادية بوجهة نظر فلسفية عميقة ونحن إذ نرحب بهذا التعاون البناء مع الدكتورة أحلام كرادرة ابنة الجزائر العربية وأعتبر هذا العمل هو ثمرة التعاون والمحبة التي تربط مصر بدولة الجزائر

فالتفكير في اللغة مدخل إلى التفكير في الإنسان والعالم -لأن الوجود - بكل شموليته دلالة اللفظ- لا يعني للإدراك الإنساني أجساماً وأشياء صماء، بل يعطي أسماء، لأي لغـة، ومحتوى اللغة كما يقول "يلمسيلف" (**Luois Hjelmslev**): «هو العالم ذاته هذا الذي يحيط بنا»[1].

والتفكير في اللغة كان دائماً من أولى اهتمامات الفكر الفلسفي، ليس فقط في لحظته المعاصرة كما يظن البعض، بل حتى في القديم مع الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية، وكذا الفلسفة الاسمية في القرون الوسطى، وهو من أخص خصائص الموقف الفلسفي، وكان هذا الاهتمام مرافقاً بموقف نقدي من الالتباس والانزياح الدلالي، واختلال المشاكلة بين الألفاظ

[1] **Louis Hjelmslev, Le langage, Trad. Michel Olsen, Gallimard, 1966, P157.**

والمعاني الذي يسم اللغة الطبيعية، وذلك بهدف ضبط الدلالة من خلال إنتاج المفاهيم، غير أن التوجه الفسلفي المعاصر لا يستهجن هذا الانزياح الدلالي للغة، بل بالعكس يستهجن ضبطه، لأن تحديد الدلالة، إفقار للغة لا إغناء لها، حيث يؤكد إن المناداة بلغة شبيهة باللغة الرياضية من حيث الضبط الدلالي عند فتجنشطين وراسل، وفي القديم عند لايبنز... يمكن اعتبارها إخلال بالروح الفلسفية وإفقار ها، فمن شروط التفكير الفلسفي ودواعيه هذا الالتباس الدلالي والحراك السيمانطيقي الذي يتسم به الوجود اللغوي، بل إن التعدد والتعارض الدلالي هي معطٍ، أخذ يعاد إليه الاعتبار مع الفلسفة المعاصرة.

والواقع أن تلك الأصوات الرافضة لفلسفة "المفهوم" ليست رافضة لأسلوب في الكتابة، ولا حتى رافضة لأسلوب في التفكير يقوم على التجريد والصياغة المفهومية، بل هو رفض يتأسس على مناهضة الخلفية الميتافيزيقية خلف التفكير المفاهيمي التقليدي، ففلسفات "المفهوم" هي عند هذا التوجه فلسفات تثبيت وجوهرانية، تفقد المعطيات حيويتها غير أن هذه الفلسفات رغم نقدها للمفهوم واستهجانها له، تنزلق مضطرة إلى الاشتغال به، وهذه هي المفارقة: فنيتشه، مثلاً الذي يرفض فلسفات المفهوم هو من أكثر فلاسفة ما بعد الحداثة اشتغالاً بالمفاهيم، بل واتباعه لها، بل حتى الشخوص التاريخية والأسطورية لم يستحضرها نيتشه كشخوص تاريخية، بل حوّلها بعملية اختزالية بارعة إلى مفاهيم قابلة للتوظيف

الإجرائي كما هو الحال مع ديونوسوس وزراددشت[2]، وهي أيضاً مفارقة هايدغر الذي بنقده للأسلوب الفلسفي، ومناداته بنمط القول الشعري، فإنه في مختلف مشاريعه الفكرية كان فيلسوف المفاهيم بامتياز، في الأشتغال على المفاهيم وتفكيك دلالاتها والتوغل في مقاربات اشتقاقية (إيتيمولوجية) للعودة إلى أصولها الدلالية المنسية حسب زعمه.

في المقابل ثمة مواقف أخرى تذهب في تقرير وتوكيد ضرورة المفهوم للتفكير الفلسفي إلى حد القول: «لا فلسفة إلا فلسفة عن المفهوم»[3]، كما يقول كوسوطا، لأن الفلسفة أصلاً ما هي إلا إعادة تفكير و"تعريف للمفهوم"[4]، وأن المهمة الأساسية للفلسفة هي أساساً يقول دولوزوغاتاري، «إبداع المفاهيم[5]، وإن "المفهمة من المهام الفلسفية الأساسية"[6] أي أن حضور المفهوم والمفهمة أو غيابها من الممارسة الفلسفي، ومن ثم الاشتغال على المفهوم ليس أسلوباً منهجياً لدراسة المتن الفلسفي وقراءته فحسب، بل هو أسلوب التفكير الفلسفي ذاته، فالفلسفة تفكير في المفاهيم وبها. وإضافة إلى ما سبق، فإن مقاربة مفهوم ما داخل متن فلسفي تحتاج إلى استحضاره داخل نسيجة المفاهيمي، لأن هذا المفهوم لا يرد منفرداً معزولاً،

---

[2] انظر: تحليلاً للشخصيات المفاهيمية عند نيتشه في:
Gilles Deleuze, Félix Guattari, Qu'est ce que le philosophie?, P 63.

[3] Fréderic Cosutta, Eléments pour la des textes philosophiques, P 40.

[4] Ibid, P 40.

[5] Gilles Deleuze, Félix, Guattari, Qu'est ce que le philosophie?, Ed. Minuit, Paris, 1991, PP 36 et 43.

[6] Ibid, P 51.

كما لو كان في متن قاموس أو معجم، بل حتى بعض القواميس لا تعزل المفهوم، بل تحرص على الإحالة، كما يتصل به مفاهيم ملحقة ومتعلقة به، التي من الضروري استحضارها، لتحديد وتعريفه على نحو أدق وأشمل.

ولتنظيم عملية المقاربة المفاهيمية

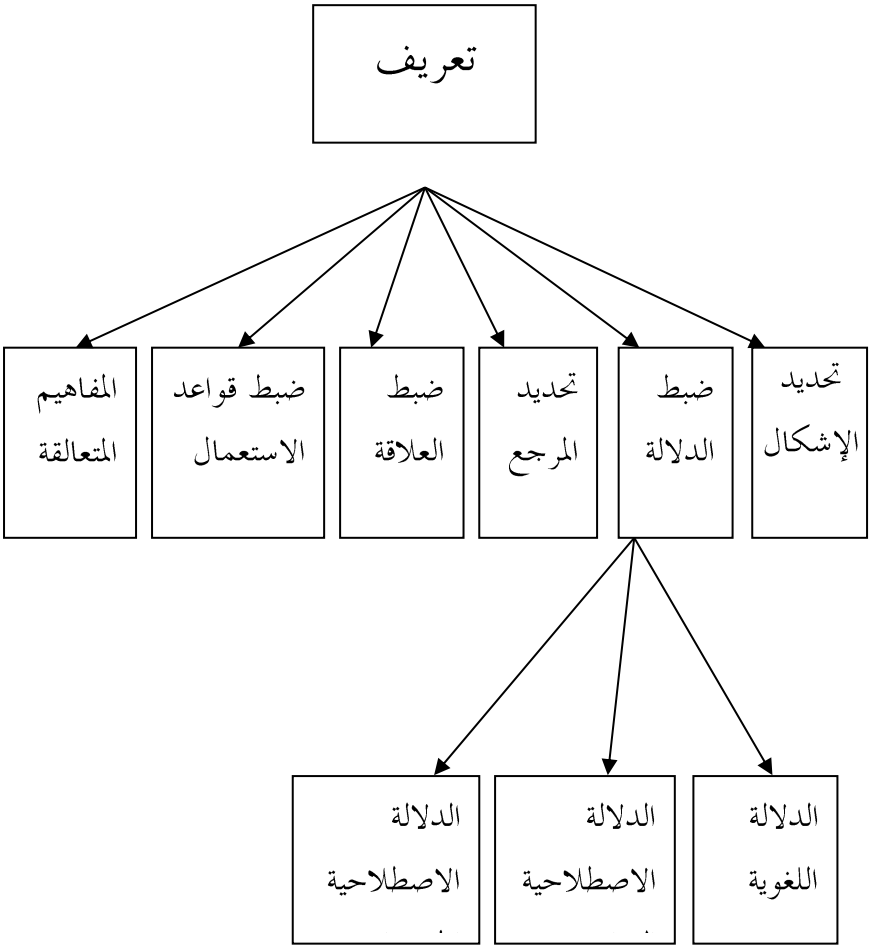

وعليه فإنّ نظرية المفاهيم ينظر إليها في علم المصطلحات كآلية توضح لنا كيفية تشكيل المصطلحات، وتزوّدنا بطرق بناء الألفاظ بأسلوب أكثر كفاءة من النظام الألفبائي، فالأسس النظرية في نظرية المفاهيم تهدف إلى تفسير ظواهر المصطلحات وأنماطها كما تدرك فعلاً في الممارسة المصطلحية.

وتعنى نظرية المفاهيم المصطلحية بثلاث مهام أساسية، وهي:

1 – إحصاء مجموعات المفاهيم كوحدات مجردة في البناء المعرفي.

2 – إحصاء مجموعات الكليات اللغوية المترابطة وذات العلاقة بالمفاهيم المعينة استناداً إلى المفاهيم المدركة.

3 – ربط الصلة بين المفاهيم والمصطلحات، القائمة على التعريفات[7].

فمن خلال ضبط المصطلحات وتحديدها، فإننا نروم ربط الصلة بين المرجع (**Referent**) الذي على أساسه نحدّد الخيط الناظم بين المصطلح والمفهوم الذي يحيل عليه، وفي الوقت نفسه فإن الضبط يؤدّي إلى إيجاد مجموعة من العلاقات أو الشبكات المفهومية داخل البناء المعرفي، فمن ناحية التوصيف اللساني للمصطلح نوظف المفاهيم بغية التواصل مع الآخرين، ولتشكيل أفكارنا الخاصة، وهو النشاط الذي يحيل تماما على الوظيفة المثالية للغة من حيث هي أداة تواصل وتفاعل وإبلاغ. بذلك فإننا نوسّع من البنية المعرفية

[7] د. ميليس بوحفص: مفاهيم، مرجع سبق ذكره، ص 32.

لحقل موضوع ما بالإضافة مفاهيم جديدة التي يتعيّن علينا، من أجلها، إيجاد أشكالها اللسانية قبل أن تستعمل في خطاب الموضوع الخاص[8]، بمعنى الانطلاق من مرجعها العام، الاجتماعي قبل أن تغدو ذات دلالة خاصة بمقابل الدلالة المتداولة، فالمفهوم يتعيّن وضعه في منظومته المعرفية التي تحدده وتوضّحه، كما يتعيّن تسميّته، وعليه، يمكن الإحالة عليه بوضوح كاف، كما يتوجب تعريف المفهوم لمزيد من إزالة اللبس، الذي قد يعتري تسميته أو يخالطه، الأمر الذي يؤدي إلى تأكيد المفهوم وترسيخه بالنسبة إلى المادة المعرفية التي يحيل عليها[9]. وعليه فإن المناهج الفكرية المتعددة قد قدّمت تعريفات مختلفة للمفهوم وذلك بالنظر إلى الهندسة النظرية التي تشكّل على ضوئها صور المفهوم.

ومن أهم ما نستفيده هو التمييز بين لحظة تشكيل حقل المفاهيم، ولحظة تشكيل حقل "المعاني العام":

في البداية نكون أمام مجموع "المصطلحية" السابقة لعملية بناء المذهب أو النظرية الفلسفية الخاصة، بمعنى أن لها صبغة العرف الاجتماعي العفوي التداولي، مهما كان مجال انتمائها المسبق، فإنها بالنسبة إلى الفيلسوف أو غيره ممن ناط عهدته بالدراسة المفهومية، مجرد كلمات لغوية، لم تتم

[8] المرجع نفسه، ص 32.
[9] د. ميليس بوحفص، مفاهيم، مرجع سبق ذكره، ص 32.

تصنيفها بعد، أي لم تدرج ضمن سياق مواضعة خاصة بحقل منضبط لكن، منهجياً ينبغي التعرّف على سابقات دلالة المفهوم، أي دلالة المعنى العام أو دلالة الطرح المتداول في المستوى القاعدي، وذلك حتى نلمس الفرق بين لحظة إدماجها داخل سياق فلسفي جديد أو غيره من الحقول المعرفية وبين مجالها التداولي السابق.

أما اللحظة الثانية، لحظة إدراجها في الحقل المفاهيمي، لمذهب أو نظرية فلسفية ما، فيقصد بها إدماج تلك البناءات اللغوية داخل تصور فلسفي خاص بنظرية فيلسوف ما، ولكن مع ذلك يبقى المفهوم غير منضبط الدلالة بالمقارنة مع وضع المصطلح، على اعتبار وقوعه في وضع وسط بين المصطلح واللفظ اللغوي بطريقة أنه لا يفضي إلى انحصار دلالته في معنى معين.[10]

ولعل هذا ما شكل السياق الذي بنيت عليه فلسفة التنوير في أوربا، عندما توجّهت إلى تجاوز الأوضاع القائمة في كل المجالات، من خلال نقدها وتغييرها، ومساءلتها، لا من أجل تبريرها وتثبيتها.

ورغم خصوصية العقل التنويري، إلى أنه كما يقول "حسن حنفي" هناك سمات مشتركة له في كل المجتمعات، ذلك أن فلسفة التنوير ترى أن: "العقل سلطان على كل شيء، وأن العقل أساس النقل، كما هو الحال في

[10] د. ميليس بوحفص، مفاهيم، مرجع سبق ذكره، ص 52.

تراثنا الاعتزالي الفلسفي، وأنه مقياس لصحة العقائد وأساس للعلم ووسيلة للقضاء على الخرافة والجهل والخوف، اتجاه نحو العالم الحسّي".[11]

ويمكن القول أنّ الحركة التنوير العربية الحديثة، قد بدأت من الحركة التي تبناها مفكرو والنهضة العربية، والتي كانت مستمدة من مواصفات وخصائص التنوير الذي تأسس في الفكر الغربي في القرن الثامن عشر، والتي كانت تسعى إلى هدف واحد، وهو إيجاد طرائق ووسائل لتحقيق الإصلاح وبالمعنى العام، ولاسيما على مستوى الذات ووعيها الذي ينبغي إنجازه، خاصة وأن التنوير يعتبر سمة من سمات التفكير، وهو يعني على مستوى الكتابة والفكر، تغيير أساليب الكتابة من الوصف والسرد. إلى التحليل والتفكيك والتفسير، والنقد، ولا شك أن هذا ما لمسناه عند المفكرين الثلاثة الذين تناولناهم في بحثنا هذا وهم: محمد عابد الجابري، محمد أركون وعبد الله العروي، <<حيث أن إنتاج هؤلاء الباحثون، يشكل خطاباً فكرياً ونقدياً فلسفياً، يشجعنا على الرغم إلى ما نذهب إليه، من أن هناك فضاء مغاربياً "أنواريا" (نسبة إلى الأنوار)، لتعدد مرجعياته وقربه واستلهامه من الثقافة الغربية المعاصرة، وأيضاً لكون جزء مهم منه مكتوب

[11] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1411هـ-1991م، ص 307.

باللغة الفرنسية، مما يعني اقترانه بفضاءات نقدية، منهجية ومفاهيمية تنتمي إلى العلوم والثقافة الغربية المعاصرة>>.[12]

فالخطاب الفكري العربي المعاصر من خلال النموذج المغاربي استطاع أن ينتقل بالإشكالية الفكرية العربية إلى آفاق وفضاءات نقدية جديدة، انتقال من الإيديولوجيات إلى الفلسفة والفكر النقدي، وهو انتقال للمفاهيم بعد تمحيصها ونقدها بوعي أداتي ومنهجي نلمسه في مشروع "الجابري" من خلال إعلائه من شأن التوجه العقلاني النقدي في مقاربة الظاهرة التراثية، مما ساهم في "تأسيس جدل عقلاني حول الذات والتراث، يتوفى التحرر، ورفع التصور الذاتي المطمئن إلى سقف عقائدي غير مطابق لمتطلبات الحاضر والمستقبل"[13] إذ لا بد من التركيز على الدلالات التاريخية والثقافية والمعرفية وحتى الجغرافية التي تقف وراء "نقد العقل"، عند الجابري"، الذي يحمل أكثر من دلالة في الفكر العربي المعاصر، وفي باب الموقف من التراث، داخل هذا الفكر، ضمن دائرة الممارسة النظرية النقدية كهدف لاستراتيجية نقدية لمشروعه الذي نعته بـ"نقد العقل العربي"، والذي يختل مفهوم اللفظ/ المعنى، ومفهوم الأصل الفرع، موقعاً مركزياً في مشروعه. فقد نبّه "الجابري" إلى: <<تجنب قراءة المعنى قبل قراءة اللفاظ، يجب التحرر

[12] د. عمر الزاوي، النقل ونقد العقل-تأملات في الخطاب الفكري عند أركون والجابري، منشورات مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، ط1، 1427 هـ-2006م.

[13] كمال عبد اللطيف، نحن وفلسفة الأنوار، من إيديولوجيا التنوير إلى فلسفة الأنوار، في مجلة الوحدة، عدد 81، يونيو 1991م، الرباط، ص 88-89.

من الفهم الذي تؤسسه المسبقات الذاتية أو الرغبات الحاضرة، يجب وضع كل ذلك بين قوسين والانصراف إلى مهمة واحدة هي استخلاص معنى النص من ذات النص >>.[14]

كما يعترف الجابري أن المنهج الذي اعتمده في قراءته المقترحة للتراث مشكل من ثلاث عمليات وهي: المعالجة البنيوية والتحليل التاريخي والطرح الإيديولوجي، ويعترف أيضاً أن هذه العمليات "متنافرة في العادة" إلا أنه لم يختر هذا الاختيار، بل أجبر عليه <<لقد فرضته عليّ المادة التي أتعامل معها (إذ) لا يمكن أن نتعامل مع التراث بدون استحضار الهاجس الأيديولوجي ولا يمكن بدون الطرح الإبستيمولوجي أن نقدم جديداً في مجال التحليل التاريخي ولا يجوز إغفال الناحية البنيوية خصوصاً ونحن نتعامل مع النصوص >>.[15]

والجابري إذا كان قد وضع المدخل العام المنهجي بعد الانتهاء ولسنوات من إنجاز دراساته المتفرقة حول الفارابي وابن رشد وابن خلدون...الخ.

منتهياً بذلك إلى صياغة الأطر النظرية والمعرفية للخطوات والخيارات المنهجية فإنه في مقدمة كتاب "الخطاب العربي العاصر"، يعترف بما لا يدع مجالاً للشك أو الاحتمال <<إننا لم نوقف إلى تبني منهج معين، من المناهج

[14] محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مصدر سبق ذكره، ص 32.

[15] محمد عابد الجابري، من حوار في مجلة الوحدة التي تصدر عن المجلس القومي للثقافة العربية، باريس، الرباط، السنة الثالثة، العدد: مزدوج: 26/ 27، نوفمبر/ ديسمبر، 1986، ص 146.

الجاهزة، ولذلك فلاحق لنا في رفع لافتة معينة ولا في التلويح بعدة لا فتات، كل ما نستطيع قوله هو أننا نبحث عن الطريق وسط الغابة لا خارجها، وفي حال كحالنا جميع النصائح مفيدة، على الأقل نظرياً. أما عند التطبيق العملي فالمفيد هو الإجرائي فعالاً، هل نتبنى نزعة إجرائية أو براغماتية معينة كلاً، كل ما نريد قوله هو أن طبيعة الموضوع ونوع الهدف المطلوب هما اللذان يفرضان الأخذ بمنهج معين، أو بعدة مناهج أو اختراع منهج جديد، والحق أن قضية المنهج ستظل ملتبسة ما لم تطرح، أولاً وقبل كل شيء، على أنها مسألة مفاهيم. فليس المنهج بضعة قواعد، ولا جملة خطوات إلا في النصوص التي تتحدث عن المناهج، أي في الخطاب الذي يريد التنظير للمنهجية، أما في الواقع، أي الممارسة العملية للبحث، فالمنهج هو أساس: المفاهيم التي يوظفها الباحث في معالجة موضوعه والطريقة التي يوظفها بها>>[16].

إذاً المنهج عند الجابري هو نفسه المفاهيم والأدوات الإجرائية التي يستعملها ويوظفها الباحث في ممارساته الفكرية النقدية، ونلمس ذلك بشكل واضح في مشروعه "نقد العقل العربي" بأجزائه الثلاثة، فمن خلال عنواني الكتاب الأول: "تكوين العقل العربي" والكتاب الثاني "بنية العقل العربي" نلاحظ أن الكاتب اختار منهجياً، المعالجة التكوينية في الأول ثم البنيوية في الثاني، وعن ذلك يقول: <<دراسات الإبستيمولوجية يقال عادة أن طبيعة الموضوع

[16] الجابري، الخطاب العربي المعاصر- دراسة تحليلية نقدية، مصدر سبق ذكره، ص ص 11-12.

هي التي تفرض نوعية المنهج، التراث العربي الإسلامي موضوع ذو خصائص متميزة لا يمكن في نظري أن يسلك الباحث في التراث العربي المنهج نفسه الذي يسلكه مؤرخ الفكر، بالمعنى الأوربي، التراث العربي مجموعة من الأفكار والآراء والنظريات تشكل كلاً واحداً، جاءت ظروف تاريخية معينة قطعت حركة تطوره ونموه، إذاً هناك تراث له خصوصية مميزة ليس حاضراً في حاضرنا ومؤسساً له بعيداً عنا، مفصولاً عن حاضرنا، هنا يمكن أن نتعامل معه ككل، نسقط الزمن من الحساب ونسقط في الثباتية والبنائية من النوع الذي يتعامل مع الشعوب البدائية لا بد من إبراز مراحل التطور والتكون متى وكيف، وإبراز مظاهر الحياة في الفكر العربي. هذا هو الذي جداني إلى الجمع بين المنهجين وتسبيق الجانب الأول (التكويني)، وفي الجانب التكويني أبرزه كما قلت وجود ثلاثة نظم معرفية في الثقافة العربية، متداخلة ومتصارعة، ثلاثة نظم تؤسس في الحقيقة، ثلاثة عقول. وعندما تصادم نظام البرهان حدث الشيء نفسه، وفي النهاية التقت هذه النظم وتصادمت وتكون عقل عربي من خصائص صراع المقولات والمفاهيم داخله، وتحليل هذه المعطيات هو موضوع القسم الثاني، فالقسم الثاني ينقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول للنظام البياني، والقسم الثاني للنظام العرفاني، والقسم الثالث للنظام البرهاني والقس الرابع بعنوان: صراع المفاهيم في العقل العربي>>[17].

[17] د. أحمد صدقي الدجاني وآخرون، ندوة "نقد العقل العربي" مناقشة لكتاب محمد عابد الجابري،

ولا شك أن الحديث عن المنهج عند الجابري لن يكتمل إلا إذا تعرفنا على الجهاز المفاهيمي الذي يعتمده، وتفهمنا كيفية اشتغال المفاهيم وانتقالها من حقلها التداولي إلى حقل ثقافي مغاير وهو الثقافة العربية الإسلامية، ومدى ارتباط المنهج وظيفياً وإجرائياً بالمفهوم الموظف من قبل الباحث، إلى درجة أن اختيار المفاهيم وطريقة توظيفها يصبح في أحد أشكاله طريقة منهجية، ولا بد من الملاحظة بدءاً أن الجابري يوظف، المفاهيم في أبحاثه ضمن ما يسميه بالملائمة والمناسبة أو الإيفاء بالغرض، وهو يقول بصدد ذلك: <<إن ما يهمني من المفهوم هو أولاً وقبل كل شيء مدى إجرائيته بالنسبة إلى موضوعي، أي مدى مطاوعته للموضوع الذي أريد أن أوظفه فيه (...) وبعبارة أخرى أن المسألة هنا محكومة بالمناسبة والملائمة أي بمدى كون المفهوم يفي بالغرض>>[18].

إن مشروع "نقد العقل" هو عنوان مشترك لكلا الخطابين "للجابري" و"أركون"، إذ هو زحزحة وخلخلة لإشكالية الفكر العربي، إذ استطاع أن ينقلها من مرحلة إيديولوجيا الأنوار إلى فلسفة الأنوار إلا أنه اختلف النعت بين المشروعين، فعند الجابري نقرأ "نقد العقل العربي" وعند أركون "نقد العقل الإسلامي"، فيقول "أركون" عن نفس الموضوع ما يلي: <<يسرني جداً أني التقيت مع صديقي الجابري في هذا المشروع... وما تشاورنا عليه...

في المستقبل العربي، عدد 70، ديسمبر 1984، بيروت، ص 142، 134.

[18] الجابري، التراث والحداثة، مصدر سبق ذكره، ص 298.

عم على جهته وعملت على جهتي... وهذا يدل على أن شيئاً ما يحدث في المغرب العربي، الجابري مغربي وأنا جزائري، ونحن كلنا مغاربة، وأنتمي إلى المغرب أود أن أعبر الحدود، لأن العقل يجب أن يعبّر على كل حال، جميع الحدود... إذاً أولاً يجب أن نسر جميعاً بهذا اللقاء لأنه كما قلت يدل على شيء مهم... وأعرف الجابري وقد تحدثنا معاً، ومشروعه ومشروعي متكاملان، لأنه يعتمد على جميع ما أنتج باللغة العربية ولذلك سمى مشروعه بـ"نقد العقل العربي" لأنه يتضمن دراسة النصوص التي أنتجت باللغة العربية، أما أنا فإني أهتم بالنصوص العربية ولكن تحت المفاهيم الميتافيزيقية العريضة التي أتى بها الإسلام والقرآن والتي عبرت الحدود العربية، إذ نجدها نفسها تعمل في إيران باللغة الإيرانية، في تركيا باللغة التركية، وفي باكستان باللغة الأردية، وفي جميع المجتمعات غير العربية التي أسلمت وتبنت المفاهيم القرآنية لإنتاج فكر نصفه إسلامي... إذاً مهمتي أنا هي أن أدرس العقل الإسلامي على المستوى الأنتروبولوجي لتفهم الأديان، ووظائف الأديان في المجتمعات<<[19].

وفي هذا الصدد نقول أن التأويل الذي يقدمه "أركون" يدخل ضمن التيار الأنتروبولوجي والسيميائي، والذي حافظ على الرهان الفلسفي القديم وهو أن المعنى الباطن أهم من الظاهر.

[19] محمد أركون، لا أكفر بالله... ولكن أريد أن أفهم ماهية الدين...، حوار أجراه معه عمر الزاوي في جريدة "الجمهورية"، عدد تاريخ 13 ديسمبر 1987، وهران.

كما أن كتابات "أركون" نجد إفراطاً في استخدام المصطلحات الحديثة المرتبطة بعلوم الإنسان والمجتمع، هذه المصطلحات جعلت من مترجم مؤلفات "أركون" يضطر للإكثار من الشرح والتعليق، وهذا ما زاد من حجم مؤلفات "أركون"، وجعلت قارئ تلك المؤلفات عرضة للتشويش والإرهاق الذهني، كما أن "أركون" أكثر من الإشارة إلى استخدام المناهج الغربية في البحث والتحليل وممارسة القراءة النقدية للتراث، أو بالمعنى الآخر للقرآن والأمور غير المفكر فيها كما سمّاها باللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه، فهو يرى أن يتسلح الباحث بآليات منهجية محددة يستطيع القارئ من خلالها الوصول إلى خلاصات معينة، فنجد أن أركون في اهتمامه بمثل هذه القراءة حريص على الطابع المنهجي أكثر من حرصه على الوقوف على النتائج والخلاصات النهائية، أي أن كتاباته تتضمن من مشاريع في البحث بما تقدمه من مخططات أكثر مما تعطي من إجابات عن الأسئلة التي تطرحها.[20]

أي أن أركون هدفه إبراز منهجية المستشرقين والمناهج الغربية أكثر من اهتمامه بالنتائج النهاية، وهذا مخالف للمبادئ العلمية والتي يزعم أنه يستعملها ويستخدمها في كتاباته ما يدل على أنه يهتم بالطابع المنهجي فيقول: <<سوف أكتفي بالتخصيص على بعض المبادئ الحادة والقاطعة

[20] محمد بوراس، محمد أركون ومشروعه النقدي، مجلة البيان، الكويت، العدد 179.

بهدف إثارة الاعتراضات والتحفظات ومن ثم التفكير والمناقشة النقدية أكثر مما تهدف إلى نتائج وإجابات جاهزة>>[21].

وإذا أردنا أن نبحث عن ملامح المنهج النقدي الذي يتحدث عنه في مؤلفاته من أجل دراسة الفكر الإسلامي وتراثه، فإننا لا نلاحظه في صوره الثابتة، فهو وإن كان في شكله العام منهجاً حفرياً وتفكيكياً إلا أنه يوظف مجموعة من الأدوات ويستخدم ركاماً من المناهج تبدو معها كتاباته وكأنها معرض متنقل لما أنتجه الفكر المعاصر وما ابتكره العقل الغربي[22]. ومن يتصفح مؤلفات أركون يجد أن لا شيء سلم من مطرقة النقد الأركوني ومنهجه الحفري الأركيولوجي، فمن نقد العقل الإسلامي والتراث إلى القرآن الكريم الذي يرى فيه جزء من الموروث لينتقل إلى السنة النبوية الشريفة وغيرها من علوم الشريعة الأخرى، وكل هذا يتّسم بمنطق الشك المطلق.

فإن مشروع أركون كان الأكثر جدارة بالبحث والتمحيص، حيث نحا صاحبه منحى جديداً وجريئاً لفتح باب النقاش، هو مفيد في عمومياته وصحيح في خطوطه العريضة حتى وإن كان مؤلماً وغير مريح في تفاصيله. وإن القراءة الأركونية مهما قيل فيها مدحاً أو ذمّاً، قد تمكّنت من أن تستل الأقلام وتسجل التحفظات، إذ اختلفت النعوت التي تطلق عليها، فهناك

[21] محمد أركون، نقد العقل الإسلامي، مصدر سبق ذكره، ص 33.
[22] محمد بوراس، محمد أركون ومشروعه النقدي، مجلة البيان، مرجع سبق ذكره، ص 103.

من يعتبرها عقلانية رافضة أو تنتمي إلى النقد السلبي، وهناك من يعتبرها عقلانية كلامية كالجابري، والأمر لا ينحصر هنا، فهناك من يشدد على أن الفكر الأركوني فكر حداثي بامتياز، وهناك من لا يتوانى في نعت هذه الحداثة الأركونية بالإسلامية (أسلمة الحداثة)، فهي حداثة إسلامية عصرية، أو من يربطها بالأصولية، هذا التأصيل الذي كان أركون يدرك هو قبل الآخرين أنه رفض مطلق أو كفر من منطلق شرعي إسلامي بها، وفي المقابل إيجاد منهج دقيق له مصطلحاته وآلياته التي تتعامل معها اللغة العربية (لغة القرآن) مواكب للمناهج الغربية الحديثة متوافق معها على الأقل في المسلمات العلمية وفي الموضوعية والعقلانية المعتمدة فيها لكي يستعمله بشكل واسع على النص الديني خاصة تلك النصوص التي تؤسس للفكر الإسلامي، وبهذا ظل أركون حاملاً لمشروعه اليتيم الذي لا يجد له أباً من مناهج الغرب ولا سنداً أو كافلاً من الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، غير أنه وفي سياق جهوده التي بذلها في سبيل إبراز فكرته وتبريرها وترجمتها إلى مشروع له مكانته في الواقع العربي الإسلامي، كان خطابه النقدي لاذعاً ومحرّكاً لجملة من الأسئلة الجوهرية التي ظلت لسنين حبيسة جهل مقدس من طرف المسلمين أنفسهم.

ومن جهة أخرى يعتبر "عبد اله العروي" من المفكرين العرب الذي ساهموا بشكل كبير وواضح في الكتابات الفكرية العربية المعاصرة، إذ قدّم لها كم هائل من الكتابات عالج من خلالها هموم العرب ومشاكلهم الآنية، وكان

يرى أن الاهتمام بالذات العربية المفكرة هو عامل أساسي لإزالة الاغتراب، هذا المفهوم الذي استعاره من "هيغل"، الذي ربط الاغتراب بالحقيقة المجسدة في ثنائية الذات (الأنا)- العالم (الموضوع)، وأن الذات لا تعرف ذاتها ولا تحقق ماهيتها إلا من خلال تموضعها في الواقع وإدراكها له، فمتى ملكت الذات وعيها وحقيقة العالم الخارجي "الموضوعي" أزالت الاغتراب عن ذاتها، وهذا ما يراه عبد الله العروي في الذات العربية المفكرة، التي تعاني من هذا الاغتراب، <<سواء في وحدة الذات مع ذاتها أو في وحدتها مع مجتمعها، هذه الوحدة التي تؤدي إلى بنية تأليفية بين أفراد المجتمع، ضمن أدلوجة معينة والتي إذا انعدمت تؤدي إلى انعدام وعي الذات بذاتها، ووعي الذات لذاتها ما هو إلا علم أفكارها>>[23].

ويرى "عبد الله العروي" أن العرب وقعوا في هوة الاغتراب لأنهم لم يدركوا التاريخ إدراكاً واعياً، لذلك وجب على الذات العربية إذا أرادت التخلص من الاغتراب أن تسأل نفسها وتدركها وأن ذلك لا يتم إلا على أساس "وعي شامل لمسيرة التاريخ"[24]، فالوعي التاريخي أو "التاريخانية" هو وحده الكفيل بإزالة اغتراب الذات أي أن يصبح الإنسان قادراً على الوعي الصحيح الناتج عن مثله من التفكير، لأن العربي من وجهة نظر "العروي" لا يعرف الحياة إلا من خلال تخيلاته وتوهماته، والصحيح بالنسبة له هو أن يبحث في

[23] د. إسماعيل روحني، دراسات في الفكر العربي المعاصر، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ص 32.
[24] عبد الله العروي، الأدلوجة العربية المعاصرة، مصدر سبق ذكره، ص 197.

الصيغة التي يجب أن يتبعها، وهي كيف يتوهم، وكيف يتمثل نفسه[25]. <<إذاً إن العرب يبالغون في تمجيد الثقافة الكلاسيكية وبالتالي يفقدون أنفسهم في متاهات ومنطلقات الماضي>>[26].

أي ما يمكن أن نستنتجه عن الوعي بالتاريخ من أفكار "عبد الله العروي"، لا يمكن أن يتحدد إلا بمفهوم التاريخ، أي تحديد موقفنا وعلاقتنا بالماضي والحاضر والمستقبل، ولا يتم ذلك إلا على ضوء المعرفة التاريخية التي نعيد وفقها تأسيس مفاهيم أزمة تأسيس الوعي، والتي كانت من نتائجها أن تعاملنا معها بوعي معكوس، إذ بدلاً من أن تتحول العقلانية لإنتاج علم، تحولت لإنتاج الأسطورة والسحر.

هذه المسألة هي التي كونت استراتيجية فكر "العروي" ابتداءً من أول كتابه "الأيديولوجيا العربية المعاصرة" إلى آخر كتاب "مفهوم التاريخ"، فقد طرح في الكتاب الأول <<بشكل جذري إشكالية المعنى والنسبية التاريخية للمقولات الفكرية كافة>>[27]، وذلك من خلال تحليل نماذج رجل الدين "الشيخ"، ورجل السياسة "سياسي"، ورجل التقنية "التقني". وهذا ما يؤكد عليه في كتابه حول "مفهوم الأيديولوجية" حين يصرح قائلاً: <<درست الأدلوجة الرائجة في عالم العروبة منذ قرن أو يزيد، فصنفتها واستخلصت

---

[25] المصدر نفسه، ص 23.

[26] حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 339.

[27] هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص 54.

من كل واحدة بنيتها ثم أوضحت أن كل أدلوجة تستوحي دوراً من أدوار التاريخ الغربي الحديث>>[28].

واتضح ذلك في تعامل القول العربي مع مفاهيم الحرية، والعلم، والدولة...إلخ لكن قد يلاحظ على هذه التصنيفات الثلاثة التي يقحمها "العروي" في الأيديولوجية العربية تفسيراً أيديولوجياً، ذلك أن هذه التقسيمات <<تقيم... التصنيفات على أساس أيديولوجي خالص، أي أنه تفسّر الأيديولوجية بالأيديولوجية ولا ترجعها إلى أساسها الاجتماعي... فضلاً عن أنها... قد ترجعها إلى أساس اجتماعي خارجي غير أساسها الحقيقي>>[29].

فلم تعد هذه الأيديولوجيات إفرازاً لواقع عربي بقدر ما كانت عند "العروي" إفرازاً لوعي زائف، مرده العقلانية الليبرالية، وهو بهذا يقحم مرجعية عصر الأنوار أساساً لنقد الوعي المعكوس، وكانطلاقة للإمساك بالتأخر التاريخي <<تعني هذا أنه من المحتم على المثقفين العرب أن يعيشوا ماضي الآخرين، واستنسخوا تجاربهم، فهل الزمان يسمح بمثل تلك الإعادة>>[30].

ولأجل تفادي مثل هذه الإعادة نلاحظ أن "العروي" في كتاباته المتأخرة يقحم مفهومين: "الماركسية الموضوعية" و"التاريخانية". "فالعروي" لم يدع

---

[28] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص 125.

[29] محمد أمين العالم، الوعي والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر، ط1، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص 142.

[30] محمد عزيز الحبابي، مصير مبهم والعرب يواجهونه بمفاهيم مبهمة، الملتقى نظمه مركز الدراسات والأبحاث الاجتماعية بتونس، مجلة الأبحاث الاجتماعية، العدد6، 1980، ص 39.

إلى الماركسية كالأيديولوجية دوغمائية بل كفلسفة نقدية، فلسفة وضعت أحد مهامها نقد أطروحات فلسفة الأنوار، لتصبح في نظر العروي <<النظرية النقدية للغرب الحديث، النظرية المعقولة الواضحة النافعة لنا في التدهور التاريخي الذي نحياه>>[31].

هذا التأخر التاريخي الذي تنطلق التاريخانية من الإقرار الصريح به <<لأن لتأخر ذاته هو سبب الوعي الذي يجعل التاريخ بعد إنسانياً مستوعباً حسياً وذهنياً>>[32].

وبإقحامه لمفهوم التاريخانية يكون "العروي" قد ارتقى بالخطاب التاريخي العربي إلى مستوى الخطاب الغربي المعاصر، أي إلى مستوى إعادة النظر في مفاهيم كالزمن، والموضوعية، والمسؤولية في الأحداث، ذلك أن الاعتقاد بالتاريخانية يعني من بين ما يعنيه: <<حصر مفهوم التاريخ في أعمال الإنسان الواعي... ومنها كذلك حصر عمل المؤرخ في الكشف عن قصد المشاركين في الواقعة ورفض اللجوء إلى مفهوم العلة كما يفعل عالم الطبيعيات>>[33].

إن دعوة "العروي" لاعتناق التاريخانية قائم على نحو غائي، لذا فإن صورة النموذج عنده تكمن في الماضي بقدر ما تكمن في المستقبل، إذ لا يمكن

---

[31] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص 125.

[32] عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، دار التنوير العربي للطباعة والنشر، ط2، دار البيضاء، المغرب، 1983،، ص 70.

[33] عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1983، ص 16.

معالجة الأخر التاريخي إلا بتبني المستقبل/ الحاضر كأساس للفكر التاريخي، إذا كنا لا نشك اليوم في أن <<مصيرنا كبقية الشعوب الأخرى مرتبط بقدرتنا على الارتفاع بوعينا من المستوى اليومي المباشر، المنفعلي القريب، إلى المستوى التاريخي والكوني والعالمي>>[34].

وهذا ما حاول "العروي" أن يقف عليه من خلال تجديد وعينا التاريخي، وذلك بتوجيه النقد إلى رؤيتنا التقليدية لماضينا، وذلك أنه وضع من المفاهيم سبيلاً لتجديد هذا الوعي التاريخي، وهذا الأخير هو استيعاب لتاريخانية الأحداث والحقب والأفكار والتحولات الكبرى، ومدى تفاعلها مع المعتقدات والأحكام[35].

لذا يبدو واضحاً أن السؤال عن المستقبل هو سؤال عن المصير، وعن الوعي بالتاريخ. وأن تبني وعي تاريخي عقلاني مؤسس على فلسفة تاريخ التي تجعل من علاقة الأنا بالزمن أساسا لها، يبقى الوسيلة الأهم من بين الوسائل التي تعمل على تدارك التأخر التاريخي لدى أي شعب من الشعوب.

يبدو أن الفلسفة لم تترك أيّ شيء لتبحث فيه، ومهمّة البحث التي تقع على عاتق الفيلسوف تستوجب بالضرورة المقياس أو المعيار الذي يُقاس به مدى انتظام هذا البحث، لهذا يحرص الفيلسوف دائماً على المنهج أو مجموعة

---

[34] برهان غليون، وعي الذات واستعادة التوازن، مجلة الفكر الديمقراطي، قبرص، العدد 11، 1990، ص 162.

[35] الافتتاحية من أجل وعي استراتيجي عربي، مجلة الوحدة، المغرب، العدد 69، 1990، ص 03.

المسالك والقواعد يُسيّر الفيلسوف أو الباحث بصفة عامة على دربها بحثاً عن الحقيقة أثناء مُعالجته للمواضيع في شتّى الميادين.

والعلم بمنهجه لا يُفارق أبداً مُهمّة الفيلسوف، بل بالعكس من ذلك، عندما يطرأ تغيُّر على العلوم أثناء سيرها على هيئة خُطوات، أو عندما يجري عليها تعديل، فإنّ هذا التعديل يُؤثّر على الفلسفة، حيث توكِل لنفسها تحليل مناهج العلماء أو عمليات تفكيرهم، كما هو الحال عند 'بيكون' أو 'جون ستيوارت مل'.

بالرغم من انفصال العلم عن الفلسفة خلال القرنين السادس والسابع عشر، إلاّ أنّ 'بيكون' جعل من العلم الأرضية التي تخدِم قضايا الفلسفة من جديد، كمرحلة حاسمة وهامة في تاريخ التفكير المنطقي، أي بعث الروح العلمية إلى الفلسفة بعد سيطرة الميتافيزيقا لمدة أطول، وكذا 'مل' في تجديده للأعمال البيكونية الأكثر مسايرة لإنجازات العِلم خلال القرن التاسع عشر، لهذا نريد أن نختم البحث بأهمّ النتائج المتوصّل إليها على مدار ثلاث فصول، خصوصاً ما يتعلّق بالمنطق الاستقرائي عند كل واحد منهما، أهم هذه النتائج:

- دراسة تاريخ الفلسفة مُهمّ، كما أنّ دراسة تاريخ العلم مُهمّ هو الآخر، للكشف عن الآليات والأسس والمبادئ المنهجية لمختلف الذهنيات عبر التاريخ، فكما أنّ العقلانية الإغريقية في شخص 'أرسطو'. وضعت منطق للتفكير السليم رغم صوريته، فإنّ للعرب والمُسلمين دور في تطوير

المناهج العلمية الاستقرائية قبل 'بيكون' و'مل'، أي أنّ تُراث العلم وفلسفته أصيل عند العرب والمُسلمين، إذ أنّنا نجد مايلي:

أ- الاهتمام الكبير الذي ولاّه 'أرسطو' للقواعد والأسس السليمة للتفكير، فالعقل لابدّ أن يكشف عن الواقع وما هو عليه من نظام كشفا مُمَنهجاً، إلاّ أنّ 'بيكون' ينقد 'أرسطو'، لأنّ القياس يتعلّق بالبحث التجريدي ويخدم غرض الفلسفة وهو مبادئ الوجود القصوى، ولا يخدم الواقع، بالرغم من الصورة المنطقية عند 'أرسطو'، صورة أمينة للواقعة الجزئية.

ب- بلوغ القانون هي المرحلة المُهمّة التي تقع على عاتق الباحث، وكتاب الطب عند 'ابن سينا'، شهادة توضّح الممارسة العلمية في الطب، واضعا القانون، نستقرئها بالرجوع إلى خُطوات المنهج التجريبي.

ج- رسالة العلم هو أن نكون على وعيّ بهمّة القواعد وللمسلمين دور في تبليغ هذه الرسالة، كما هو الحال عند 'ابن طفيل' الذي بدوره وضع وصف منهجي لطريقة علمية من الطراز الأوّل.

- مفتاح العلم المنهج، بل هو المعيار الذي نُميّز به ما هو علميٌّ وزائف، لكن لابدّ أن يكون المنهج في عمقه نقد مستمر لا مُتناهي، لهذا نقد 'بيكون' القياس الأرسطي، لأنّه يوقعنا في الميتافيزيقا، في الوقت الذي نحن بحاجة فيه أن نكون أسياداً على الطبيعة، إلاّ بواسطة الاستقراء.

- لا يكفي الاستقراء كمنهج في إنشاء فلسفة علمية تدرس الطبيعة، بل علمية التحليل مُهمّة في هذا الإنشاء، وهذا يرتبط أكثر بمُراعاة التطوّر

الذي يحصل على مناهج العلم، لهذا أراد 'مل' تحليل الاستقراء بأكمله استجابة للبحث العلمي وتغيّراته خلال العصر الذي عاش فيه.

- يشترك العلم والفلسفة غالباً لبلوغ غاية واحدة، لكن لا يجب أن نُخلط بين البحث في الميتافيزيقا والبحث في الطبيعة لهذا نقد 'بيكون' المنطق الأرسطي، لكنّه لم يُبرّر مبدأ العلّة، خوفا منه أن يقع فيما وقع فيه 'أرسطو' نفسه، أم 'مل' أعاد الاعتبار للعلّة لا العلّة الأولى، وإنّما العلّة التي تكشف العلاقة بين الظواهر الطبيعية.

- التجربة والمُلاحظة هما بمثابة لمحكّ الأساسي لكل عملية في البحث العلمي، لكن تحقيق الفُروض هو الذي يضع هذه العملية بصبغة علمية، نتأكّد منها على صحّة القوانين، لهذا وضع 'مل' قواعد لتحقيق الفروض.

- بما أنّ العلم يتغيّر ويتطوّر، لابدّ أن نحلل طرقه ومنهاجه، بحيث عملية التحليل هذه تتطلّب خدمة التغيّر والتطوير، لهذا ينقد 'كارل بويو' المنهج الاستقرائي ويُصحّح دور فلسفة العلوم المنوط بها.

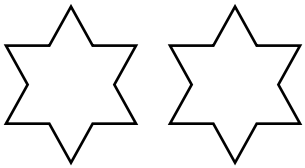

محتويات الكتاب

إهداء 1	4
إهداء 2	5
المقدمة	6
الجزء الأول الدكتور. عبد البر الصياد	
أوهام التطور	9
الاستدلال	11
شروط المعرفات	15
قصة القانون	16
أوجه الحق وجهة نظر	34
الهزل والتنظيم المديني (أفلاطون)	35
ارتجال المرافعة	41
الأسلوب واللغة	43
حرية المرافعة	45
خصائص السلوك الصادر عن الكبت	47
بدون لغة	51
التحليل	52

لا فكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر	55
الإسقاط	56
سمات الشخصية السيكوباتية	64
مظاهر الشخصية السيكوباتية:	66
أنماط الشخصية السيكوباتية	67
أسباب تكوين ونمو الشخصية السيكوباتية	71
خصائص الشخصية السيكوباتية	73
الشخص السادي	75
بارانويا (جنون الارتياب)	80
"كلماتك أغلقت باب محاكمتك"	87
الخاتمة	94
الأستاذة. أحلام كرادرة	
1-النظرة الثاقبة بين الشك واليقين في الفقه الإسلامي	96
2- قانون الكون ومُدركات الإنسان	104
3- سيكولوجية القيادة ومناهج البحث	108
4- الهوية الإنسانية في ظل التحديات المعاصرة	113
5- التحفيز الإنساني وعلاقته بالعمل الإداري	123
6- احترام التنوع الثقافي وإقصاء النمطية	126

7- الاستثمار في الإنسان المعاصر	130
8- أنسنة السلوك البشري في ظل التحديات المعاصرة	136
9- النفس البشرية بين الوعي واللاوعي	143
10- الإنترنت وازدحام المبادئ والقيم الأسرية داخل المجتمعات العربية	145
11- فلسفة الطب والعلاج النفسي	148
12- دور المرأة في ميدان التربية والتعليم	154
13- المراهقة.... والتربية	157
14- همسات الشوارع	161
خاتـمة	164
محتويات الكتاب	190

تم بحمد اللّه

الفلسفة السيكولوجية للإنسان المعاصر
بحث اجتماعي

د. عبد البر الصياد – أ. أحلام كرادرة

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com